

مدينة النحاس

كامل كيلاني



مدینه النحاس

تألیف
کامل کیلانی



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: ورود الصاوي

الترقيم الدولي: ٦ ٢٢٦ ٠٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٢.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	الفصل الأول
١٣	الفصل الثاني
١٧	الفصل الثالث
٢٣	الفصل الرابع
٢٩	الفصل الخامس
٣٩	الفصل السادس
٤٩	الفصل السابع

الفصل الأوّل

(١) هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ

هَبَّتِ الْعَاصِفَةُ شَدِيدَةً عَاتِيَةً، وَتَعَالَتْ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ هَادِرَةً صَاحِبَةً، تُهَدِّدُ السَّفِينَةَ بِالْغَرَقِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى، وَاسْتَوْلَى الْخَوْفُ عَلَى رُكَّابِ السَّفِينَةِ وَمَلَاحِيهَا وَرَبَّانِهَا، وَخَارَتْ مِنْهُمْ الْقُوَى، وَكَادَ الْيَأْسُ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِمْ، لَوْلَا مَا بَعَثَهُ أَمِيرُهُمْ «إِقْبَالُ» الشُّجَاعُ مِنْ أَمَلٍ فِي نَفُوسِهِمْ، بِفَضْلِ مَا أُوتِيَ مِنْ ثَبَاتِ قَلْبٍ، وَقُوَّةِ عَزِيمَةٍ، وَبِرَاعَةِ حِيلَةٍ. وَالشُّجَاعُ تُعَدِّي كَمَا يُعَدِّي الْخَوْفُ، وَتَنْتَقِلُ مِنْ شَخْصٍ إِلَى آخَرَ كَمَا يَنْتَقِلُ الْمَرَضُ.

وَكَانَ «إِقْبَالُ» مِنْ أَفْذَانِ الرَّجَالِ الَّذِينَ تَزِيدُهُمُ الشَّدَائِدُ صَلَابَةً وَقُوَّةً، فَرَّاحٌ يُصَدِّرُ إِلَيْهِمْ أَوْامِرَهُ تَبَاعًا — فِي بَرَاعَةٍ وَحَنَكَةٍ وَذِكَاءٍ — حَتَّى كَتَبَتْ لَهُمُ السَّلَامَةَ، بَعْدَ أَنْ تَعَرَّضُوا لِلْهَلَاكِ يَوْمَينِ كَامِلَيْنِ، كَانَتْ الْعَوَاصِفُ تُهَدِّدُهُمْ — فِي خِلَالِهِمَا — بِالْغَرَقِ بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْفَيْئَةِ.

فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الثَّلَاثُ سَكَنَتِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ، وَهَدَّاتِ الْأَمْوَاجُ النَّائِرَةُ، وَنَجَّتْ سَفِينَةُ الْأَمِيرِ، كَمَا نَجَّتْ سَفَائِنُ أَتْبَاعِهِ وَحَاشِيَتِهِ مِنَ الْغَرَقِ.

(٢) حِوَارُ الْأَمِيرِ وَالرُّبَّانِ

وَمَا إِنَّ تَبَيَّنَ الرُّبَّانُ مَوْقِعَ السَّفِينَةِ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى صَرَخَ مُنَاطِلًا، وَقَالَ: «لَقَدْ نَجَّوْنَا يَا سَيِّدِي الْأَمِيرَ مِنَ الْغَرَقِ، وَلَكِنَّا لَمَّا نَجَّجْنَا مِنَ الْهَلَاكِ،

فَسَأَلَهُ الْأَمِيرُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»

فَقَالَ الرَّبُّ: «لَقَدْ ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ؛ فَمَا نَعْلَمُ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الدُّنْيَا طَوَّحَتْ بِنَا
العاصِفةُ؟ وما يَدْرِي أَحَدٌ: أَيُّتَاحُ لِسَفَائِنِنَا (مَرَاقِبِنَا) أَنْ تَرْسُوَ عَلَى الْبَرِّ، أَمْ كُتِبَ عَلَيْنَا أَنْ
نَقْضِي مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِنَا فِي الْحَيَاةِ هَائِمِينَ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ حَتَّى يَنْفَدَ مَا مَعَنَا مِنْ طَعَامٍ
وَشَرَابٍ فَنَهْلِكُ جُوعًا وَعَطْشًا، بَعْدَ أَنْ نَجُونَ مِنَ الْمَوْتِ غَرَقًا؟»

فَقَالَ الْأَمِيرُ الشُّجَاعُ: «لَا تَجَزَعُ وَلَا يَهِنُ مِنْكَ الْعَزْمُ، فَإِنَّ عِنَايَةَ اللَّهِ الَّتِي يَسَّرَتْ لَنَا
طَرِيقَ الْخَلَاصِ مِنْ خَطَرِ الْعَاصِفَةِ، قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تُبَيِّنَ لَنَا طَرِيقَ النِّجَاةِ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ
— سُبْحَانَهُ — قَدْ كَتَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَمُوتَ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ فَلَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِيهَا قَضَى اللَّهُ. وَمَا
أَجْدَرْنَا أَنْ نُوَجِّهَ الْمَوْتَ — كَمَا نُوَجِّهُ الْحَيَاةَ — بِاسْمِ غَيْرِ هَيَّابِينَ وَلَا خَائِفِينَ. وَلَيْسَتْ
هَذِهِ أَوَّلُ عَاصِفَةٍ تَلْقَاهَا فِي رِحْلَاتِنَا، وَمَا أَحْسَبُهَا آخِرَ عَاصِفَةٍ تُكْتَبُ لَنَا السَّلَامَةُ — بِإِذْنِ
اللَّهِ — مِنْ أَهْوَالِهَا.»



(٣) الرَّاحَةُ بَعْدَ التَّعَبِ

وهكذا رَدَّ الأَمِيرُ الشُّجَاعُ الطُّمَأْنِينَةُ إِلَى قُلُوبِ أَصْحَابِهِ. وَسَارَتْ سَفَائِنُ الأَمِيرِ تَحْمِلُهُ مَعَ حَاشِيَتِهِ وَجُنُودِهِ فِي البَحْرِ عَلَى غَيْرِ هُدَى خَمْسَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ. ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فِي اليَوْمِ السَّادِسِ عَلَى السَّاحِلِ، فَخَرَجَ الأَمِيرُ وَرِفَاقُهُ إِلَى البَرِّ آمِنِينَ شَاكِرِينَ اللهُ حَامِدِينَ، وَجَلَسُوا يَلْتَمِسُونَ الرِّاحَةَ مِنْ عِنَاءِ السَّفَرِ، بَعْدَ أَنْ كَابَدُوا فِي رِحْلَتِهِمُ الطَّوِيلَةَ الشَّاقَّةَ مَا كَابَدُوا مِنْ أَهْوَالِ وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِمُ المَقَامُ رَأَوْا مِنْ دَلَائِلِ الخِصْبِ والخَيْرِ العَمِيمِ مَا مَلَأَ نَفُوسَهُمْ بِهَجَّةٍ وَإِعْجَابًا، حَتَّى خَيَّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَلُّوا فِي جَنَّةٍ مِنْ جَنَّاتِ الفِرْدَوْسِ ذَاتِ أَنهَارٍ وَأَشْجَارٍ، وَرِياضٍ تَحْفَلُ بِأَطْيَابِ النَّمَارِ والأَزْهَارِ!
وَلَبِثُوا أَيَّامًا يَتَرَقَّبُونَ أَنْ يَرَوْا إِنْسَانًا يَسْأَلُونَهُ عَنِ اسْمِ المَكَانِ الَّذِي حَلُّوا بِهِ، فَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا.

(٤) المَدِينَةُ المُوَصَّدَةُ

وَذَا صَبَاحٍ خَرَجَ الأَمِيرُ يَرْتَادُ تِلْكَ الأَنْحَاءَ لِيَتَعَرَّفَ شَيْئًا عَنْهَا، فَاَنْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ، فَقَصَدَ إِلَيْهِ، ثُمَّ صَعَدَ فِيهِ، وَمَا زَالَ مُصْعِدًا فِيهِ حَتَّى بَلَغَ قِمَّتَهُ.
فَرَأَى عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ سُورَ مَدِينَةٍ عَالِيَةٍ، فَأَيَقَنَ بِقُرْبِ الفَرَجِ، وَأَسْرَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ يُخْبِرُهُمْ بِمَا رَأَى. وَكَانَ المَسَاءُ قَدِ اقْتَرَبَ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ، وَأَسْتَأْنَفُوا السَّيْرَ فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِيِ حَتَّى بَلَغُوا ذِرْوَةَ الجَبَلِ، ثُمَّ هَبَطُوا إِلَى سَفْحِهِ الأَخْرِ، وَأَسْتَرَا حُوا يَوْمَهُمْ، مُسْتَأْنِفِينَ فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِيِ سَيْرَهُمْ، فَرَأَوْا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ مَدِينَةً عَالِيَةً البُنْيَانِ، مُشَيَّدَةً الأَرْكَانِ، يَحْفُ بِهَا سُورٌ عَالٍ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا، وَرَأَوْا أَبْوَابَهَا النُّحَاسِيَّةَ مُغْلَقَةً قَدْ أُحْكِمَ رِتَاجُهَا بِالمَتَارِيسِ والأَقْفَالِ، فَاسْتَحَالَ الدُّخُولُ إِلَيْهَا، وَوَلَّاحَ لَهُمْ فِي أَعْلَى السُّورِ بَرُوجٌ مُحْصَنَةٌ، أَبْوَابُهَا مِنَ النُّحَاسِ، أُتْقِنَتْ نَقُوشُهَا وَزَخَارِفُهَا أَيَّامًا إِتْقَانًا، فَأَقَامُوا يَوْمَهُمْ يَدْبُرُونَ الحِيلَةَ فِي دُخُولِهَا، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى وَسِيلَةٍ تُمْكِّنُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِمْ.

(٥) السُّلْمُ الْكَبِيرُ

فَأَشَارَ عَلَيْهِمُ الْأَمِيرُ أَنْ يَعْمَلُوا سُلْمًا كَبِيرًا يُسَامِتُ ذِرْوَةَ سُورِهَا الْعَالِي لِيُمْكِنَهُمْ مِنْ فَتْحِ
أَبْوَابِهَا، وَتَعَرَّفَ خَيْرَهَا وَعَجَائِبِهَا، وَسُؤَالَ أَهْلِهَا عَنْ أَسْمِهَا، وَمَكَانِهَا مِنَ الدُّنْيَا.

فَقَالُوا: «نَعَمْ مَا أَشَارَ بِهِ الْأَمِيرُ.»

وَمَا لَبِثُوا أَنْ أَنْمُوا صُنْعَ السُّلْمِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ تَعَاوَنُوا عَلَى رَفْعِهِ حَتَّى أَقَامُوهُ وَالصَّقُوهُ
بِالسُّورِ الْعَالِي، فَجَاءَ مُسَاوِيًا لَهُ، كَأَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَلَى قَدِّهِ وَارْتِفَاعِهِ.

(٦) السَّبَّاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ

فَشَكَرَ لَهُمُ الْأَمِيرُ جُهْدَهُمْ وَتَوَفَّقَهُمْ، وَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ. لَقَدْ كَلَّلَ اللَّهُ مَسْعَاكُمْ بِالنَّجَاحِ،
فَكَأَنَّمَا قَسْتُمُ السُّلْمَ عَلَى ارْتِفَاعِ سُورِ الْمَدِينَةِ.»

ثُمَّ سَأَلَهُمْ: «أَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْتَقِيَ هَذَا السُّلْمَ الْعَالِي حَتَّى يَبْلُغَ ذِرْوَةَ السُّورِ، ثُمَّ
يَحْتَالَ لِنُزُولِهِ إِلَى أَرْضِ الْمَدِينَةِ لِيَفْتَحَ لَنَا مَغَالِيقَ هَذَا الْبَابِ؟»



الفصل الأول

فَقَالَ أَحَدُهُمْ، وَقَدْ طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى الظَّفَرِ بِتَحْقِيقِ رَغْبَةِ الأَمِيرِ: «أنا أَصْعَدُ عَلَيْهِ أَيْهَا الأَمِيرُ، وَأَتَكَفَّلُ بِفَتْحِ أَبْوَابِ المَدِينَةِ.»

فَقَالَ الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ»: «أصْعَدُ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ.»

فَصَعِدَ الفَارِسُ أَدْرَاجَ السَّلْمِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَغْلَاهُ.

وَمَا كَادَ يَرْتَقِي سُورَ المَدِينَةِ، وَتَثَبَّتْ عَلَيْهِ قَدَمَاهُ حَتَّى شَخَّصَ بَبْصَرِهِ إِلَى المَدِينَةِ،

وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، هَآنَذَا حَاضِرٌ إِلَيْكَ، مَا تِلْ بَيْنَ يَدَيْكَ.»

ثُمَّ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ المَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ العُلُوِّ الشَّاهِقِ، فَدَقَّتْ عُنُقُهُ، وَأَنْهَرَسَ لَحْمُهُ وَعَظْمُهُ.

فَقَالَ الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ»: «إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلَ العَاقِلِ، فَمَاذَا يَصْنَعُ المَجْنُونُ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَيَفْنَيْنَّ

أَصْحَابُنَا جَمِيعًا إِذَا اقْتَدَوْا بِفِعْلِ هَذَا الرَّائِدِ الأَحْمَقِ. ارْجِعُوا، فَلَا حَاجَةَ بِنَا لِدُخُولِ هَذِهِ

المَدِينَةِ المَسْحُورَةِ، وَلَا خَيْرٍ فِي البَقَاءِ هُنَا حَتَّى لَا نُعَرِّضَ أَصْحَابَنَا لِلرَّدىِ، وَلَا نُلْقِيَ بِهِمْ إِلَى

التَّهْلُكَةِ.»



فَقَالَ فَارِسُ جَرِيءٌ: «أُنْحَ لِي يَا مَوْلَايَ فُرْصَةً مَاجِدَةً، لَعَلِّي أَثْبُتُ قَلْبًا مِنْ صَاحِبِي، وَأَرْجِحُ عَقْلًا، فَإِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنَّي قَادِرٌ عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ مَتَى أَدْنَى لِي الْأَمِيرُ.»
فَقَالَ الْأَمِيرُ «إِقْبَالَ»: «أَخَشَى أَنْ يَنَالَكَ مَا نَالَ صَاحِبِكَ.» ثُمَّ أَدْنَى لَهُ.
وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ عَلَى السُّورِ، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَبَلِ مِثْلُ مَا ظَهَرَ عَلَى صَاحِبِهِ؛ فَصَفَّقَ بِكَفَيْهِ، وَصَاحَ صَيْحَةً رَفِيقَهُ الْأَوَّلِ: «لَبَيْكَ، لَبَيْكَ، لَبَيْكَ، هَا أَنَا ذَا حَاضِرٍ إِلَيْكَ، وَمِثْلُ بَيْنَ يَدَيْكَ.» ثُمَّ قَدَفَ بِنَفْسِهِ مِنْ فَوْقِ السُّورِ، وَهَوَى إِلَى أَرْضِ الْمَدِينَةِ، فَاخْتَلَطَ لَحْمُهُ بِعَظْمِهِ مِنْ قَوْرِهِ.

فَلَمْ يَبْنِ مَصْرَعُهُمَا مِنْ عَزْمِ إِخْوَانِهِمَا عَنْ مُتَابَعَتِهِمَا. وَتَهَاوَنُوا: وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، يُلْحِقُونَ فِي إِنْجَازِ مَا عَجَزَ عَنْهُ غَيْرُهُمْ، وَكُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَقْدَرُ مِمَّنْ سَبَقَهُ، وَأَجْدَرُ بِالْفَوْزِ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى هَلَكَ مِنْهُمْ جُمْهُورٌ كَبِيرٌ. وَلَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى السُّورِ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا لَبِئْتُهُ غَيْرُهُ، ثُمَّ يَلْقَى مَصْرَعَهُ مِنْ قَوْرِهِ.

(٧) قَائِدُ الْجَيْشِ

فَانْبَرَى قَائِدُ الْجَيْشِ قَائِلًا: «مَا لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ. وَلَنْ تَرَى مِنِّي — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — غَيْرَ مَا يَسُرُّكَ.»

فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ «إِقْبَالَ»، وَقَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْجَزَعُ: «هَيْهَاتَ أَنْ أَدْنَى لَكَ بِذَلِكَ. كَلَّا، لَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ هَذِهِ الْمُحَالْوَةِ الْجَرِيئَةِ بَعْدَ أَنْ ظَهَرْتَ لَكَ عَاقِبَتُهَا. وَأَنْتَ قَائِدُ الْجَيْشِ وَمُرْشِدُهُ، وَلَنْ يُطَاوَعَنِي قَلْبِي عَلَى أَنْ أُعْرِضَكَ لِلْمَوْتِ بَعْدَ أَنْ رَأَيْتَ مَصَارِعَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ مِنْ أَشْجَعِ فُرْسَانِنَا الْمُدْرِيينَ.»

وَطَالَ الْحَوَارُ وَالْجَدَلُ بَيْنَ الْأَمِيرِ وَقَائِدِ الْجَيْشِ، ثُمَّ انْتَهَى رَأْيُ الْأَمِيرِ إِلَى إِجَابَةِ الْقَائِدِ؛ ثِقَّةً بِحِزَامَةِ أَمْرِهِ، وَرَجَاحَةً عَقْلِهِ، وَرَبَاطَةً جَاشِهِ.

وَارْتَقَى الْقَائِدُ السَّلْمَ، وَقَلْبُهُ مُمْتَلِئٌ بِقِيْنًا وَإِيمَانًا بِنَجَاحِ مَسْعَاهُ، حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى السُّورِ. وَمَا كَادَ يَفْعَلُ حَتَّى شَخَّصَ بَبَصَرِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ الْأَضْطِرَابِ، وَصَاحَ كَمَا صَاحَ أَصْحَابُهُ مِنْ قَبْلُ: «لَبَيْكَ، لَبَيْكَ، لَبَيْكَ، هَا أَنَا ذَا حَاضِرٍ إِلَيْكَ، وَمِثْلُ بَيْنَ يَدَيْكَ.» ثُمَّ قَدَفَ بِنَفْسِهِ مِنْ فَوْقِ السُّورِ، وَهَوَى إِلَى الْأَرْضِ كَمَا هَوَى أَصْحَابُهُ مِنْ قَبْلُ.

الفصل الثاني

(١) فاتح المدينة

فَلَمَّا رَأَى الْأَمِيرُ «إِقْبَالَ» مَصَارِعَ أَتْبَاعِهِ، وَهَلَكَ قَائِدَ جَيْشِهِ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُقْلِعُوا عَنْ مُحَاوَلَتِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَا لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرِي.»

فَارْتَاعَ أَصْحَابُ الْأَمِيرِ وَجَزَعُوا، وَتَفَرَّعُوا مِمَّا سَمِعُوا، وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ ضَارِعِينَ أَنْ يَكْفَى عَنْ هَذِهِ الْمُخَاطَرَةِ، وَقَالُوا لَهُ مُسْتَعْظِمِينَ: «تَرَفَّقْ بِنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَإِنَّ حَيَاتِنَا زَهْنٌ بِحَيَاتِكَ، وَلَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى الْبَقَاءِ بَعْدَكَ، فَأَنْتَ دَلِيلُنَا وَرَائِدُنَا، وَهَادِينَا وَمُرْشِدُنَا.»

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُدْرِكَ هَذِهِ الْغَايَةَ أَوْ أَهْلِكَ دُونَهَا، وَلَنْ يُثْنِيَنِي عَنْ بُلُوغِهَا شَيْءٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

فَلَمَّا رَأَوْا إِصْرَارَ الْأَمِيرِ عَلَى عَزْمِهِ، وَعَجَزَهُمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ إِرَادَتِهِ، كَفُّوا عَنْ الْإِحْفَافِ، وَاتَّجَّهُوا إِلَى اللَّهِ بِدُعَائِهِمْ وَرَجَائِهِمْ.

وَارْتَقَى الْأَمِيرُ دَرَجَاتِ السُّلْمِ الْعَالِي حَتَّى بَلَغَ ذِرْوَتَهُ. وَمَا كَادَ يَسْتَقِرُّ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ حَتَّى اسْتَحَفَّهُ الْفَرَحُ، فَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ إِعْجَابًا، وَشَخَّصَ بَبَصَرِهِ إِلَى الْفِضَاءِ مُتَأَمِّلًا، فَجَزَعَ أَصْحَابُهُ مِمَّا رَأَوْا، وَتَوَهَّمُوا أَنَّ أَمِيرَهُمْ سَيَلْحَقُ بِمَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْهَالِكِينَ، وَحَسَبُوا أَنَّهُ قَازِفٌ بِنَفْسِهِ مِنْ أَعْلَى السُّورِ الشَّاهِقِ، فَتَعَالَى صُرَاخُهُمْ، وَأَنْطَلَقُوا يَصِيحُونَ مَدْعُورِينَ: «رُحْمَاكَ اللَّهُمَّ رُحْمَاكَ! تَرَفَّقْ بِنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ، وَلَا تُلْقِ بِنَفْسِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ فَنُصَبِحَ بَعْدَكَ مِنَ الْهَالِكِينَ.»

وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، وَتَغَلَّبَتِ الْحِكْمَةُ عَلَى الطَّنِيشِ، وَانْتَصَرَ الْعَقْلُ عَلَى السُّحْرِ، فَجَلَسَ الْأَمِيرُ سَاعَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ نَهَضَ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي لَهْجَةِ الْوَائِقِ الثَّابِتِ الْعَزْمِ:

«لَا تَخَافُوا عَلَيَّ، وَلَا تَهْنُ عَزَائِمُكُمْ أَيُّهَا الرَّفَاقُ، وَلَنْ تَرَوْا إِلَّا مَا يُسْرِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لَقَدْ صَرَفَ اللَّهُ عَنِّي كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَمَكْرَهُ.»
وَجَلَسَ الْأَمِيرُ قَلِيلًا يَفَكِّرُ فِي فَتْحِ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ نَهَضَ قَائِمًا.

(٢) الْجَوَارِي الْعَشْرُ

أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ، أُنْعَرِفُ مَاذَا رَأَى الْأَمِيرُ حِينَ وَقَفَ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ؟
لَقَدْ شَهِدَ مَا لَمْ يَشْهدهُ إِنْسَانٌ، وَرَأَى أَعْجَبَ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنَانِ، وَسَمِعَ أَعْجَبَ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَانِ: رَأَى عَشْرَ جَوَارٍ، كَأَنَّهُنَّ الْأَقْمَارُ، يُشْرَنَ بِأَيْدِيهِنَّ إِلَيْهِ، وَيُنَادِيهِنَّ قَائِلَاتٍ:
«تَعَالِ إِلَيْنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْعَظِيمُ!»
وَحُبِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ تَحْتَهُ بَحْرًا مِنَ الْمَاءِ دَانِيًا مِنْهُ (قَرِيبًا)، فَهَمَّ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا فَعَلَ مَنْ سَبَقَهُ، فَرَأَى أَصْحَابَهُ صَرَخِي، فَثَابَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ، وَأَدْرَكَ أَنَّ مَا يَرَاهُ خِدَاعٌ سَاحِرٍ، فَاسْتَمْسَكَ، وَاعْتَصَمَ بِالصَّيْرِ، وَلَمْ يُلْقِ بِنَفْسِهِ.

وَهَكَذَا رَدَّ اللَّهُ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَفِتْنَتَهُ، وَتَجَلَّى لَهُ أَنَّ مَا رَأَاهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَكِيدَةً دَبَّرَهَا سَاحِرٌ بَارِعٌ، لِيَرُدَّ عَنِ الْمَدِينَةِ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ اقْتِحَامَهَا، وَيَرُومُ الْوُصُولَ إِلَيْهَا. وَهَكَذَا رُفِعَتِ الْغِشَاوَةُ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَتَكَشَّفَ لَهُ هَوْلٌ مَا كَانَ مُقَدِّمًا عَلَيْهِ. وَزَالَ عَنْهُ كَيْدُ الْكَائِدِينَ، وَحَمَدَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — عَلَى مَا أَنَاَرَ لَهُ مِنْ طَرِيقٍ، وَيَسَّرَ لَهُ مِنْ رُشْدٍ وَتَوْفِيقٍ؛ فَقَدْ شَاءَتْ رَحْمَتُهُ بِالْأَمِيرِ أَنْ يُبَصِّرَهُ بِمَوْجِ الْخَطَرِ، فَاعْتَبَرَ بِمَصْرَعِ أَصْحَابِهِ. وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ وُعِظَ بِنَفْسِهِ!

(٣) الطَّلَسُمُ

وَمَسَى الْأَمِيرُ عَلَى السُّورِ بِضَعِ خُطَوَاتٍ، فَرَأَى بُرْجًا عَالِيًا مِنَ النُّحَاسِ، لَهُ بَابٌ مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيذِ (الْخَالِصِ)، مَفْتُوحٌ عَلَى مَصْرَاعِيهِ. وَحَانَتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ فَرَأَى فِي وَسْطِ الْبَابِ صُورَةَ فَارِسٍ مِنْ نُحَاسٍ، لَهُ كَفٌّ مَمْدُودَةٌ كَأَنَّمَا تُشِيرُ إِلَى لَوْحٍ مَكْتُوبٍ، فَقَرَأَهُ الْأَمِيرُ فَإِذَا فِيهِ:

مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْعَظِيمُ. مَرْحَبًا بِكَ يَا مُخْلِصَ مَدِينَةِ النُّحَاسِ، وَوَاهِبَ الْحَرِيَّةِ لِمَنْ فِيهَا مِنَ النَّاسِ.

تأمل الزُّنْبُرُكَ الَّذِي تَرَاهُ فِي صَدْرِ الْفَارِسِ، وَأِدْرُهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَوْرَةً، ثُمَّ
أَفْرِكِ الْمِسْمَارَ اللَّوْلِيَّ الَّذِي بِجَانِبِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً.

(٤) مَفَاتِيحُ الْمَدِينَةِ

فَتَعَجَّبَ الْأَمِيرُ مِمَّا رَأَى. وَمَا إِنَّ أْتَمَّ قِرَاءَةَ وَصِيَّةِ الطَّلَسِمِ حَتَّى انْفَتَحَ أَمَامَهُ بَابٌ صَغِيرٌ فِي
الْحَالِ، سُمِعَ لَهُ صَوْتُ خَافِتٍ، فَدَخَلَ مِنْهُ سَالِكًا يَهْلِيئًا طَوِيلًا. انْتَهَى بِهِ إِلَى سُلْمٍ نَحَاسِيٍّ
صَغِيرِ الدَّرَجِ، فَهَبَّطَ مِنْهُ بِضَعِ دَرَكَاتٍ، فَرَأَى رُذْهَةً اضْطَفَّتَ فِيهَا الْأَرَاكُ، يَجْلِسُ عَلَيْهَا
حُرَّاسٌ، أَشْدَاءُ أَقْوِيَاءُ كَامِلُو الْعَتَادِ، فِي أَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ الْمُزْهَفَةُ، وَالْقِسِيُّ الْمُوتَرَةُ، وَالسَّهَامُ
الْمُفَوَّقَةُ، فَاِبْتَدَأَهُمُ بِالنَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَحَسِبَهُمْ نَائِمِينَ. وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:
«لَعَلَّ مَفَاتِيحَ الْمَدِينَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ.»

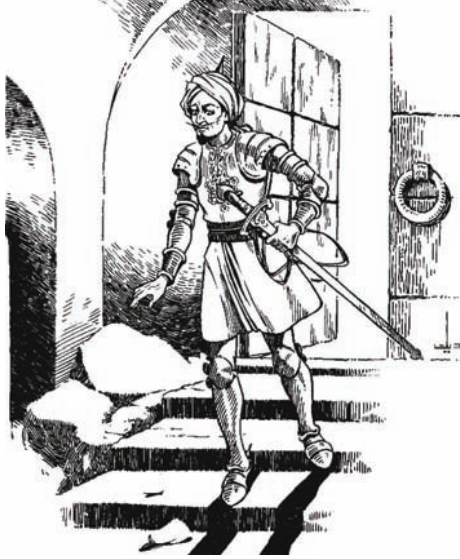
ثُمَّ أَدَارَ لِحَاضَهُ، فَرَأَى رَجُلًا مَهِيَبَ الطَّلَعَةِ، رَائِعَ السَّمْتِ، بَادِي الْفُتُوَّةِ، شَدِيدَ الْبَأْسِ
وَالْقُوَّةِ، وَهُوَ عَلَى أَرِيكَةٍ عَالِيَةٍ، فَقَالَ الْأَمِيرُ: «لَعَلَّ هَذَا صَاحِبُ مَفَاتِيحِ الْمَدِينَةِ.» وَحَيَّاهُ، فَلَمْ
يُجِبْهُ.

وَحَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ، فَرَأَى عَلَى قَيْدِ (مَسَافَةٍ) حُطُوتٍ مِنْهُ أَرِيكَةً عَلَيْهَا رَجُلٌ قَاعِدٌ،
وَفِي ذِرَاعِهِ سُلْسَلَةٌ مِنَ النُّحَاسِ الْأَصْفَرِ، فِيهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ مِفْتَاحًا، فَعَرَفَ أَنَّهُ بَوَابُ الْمَدِينَةِ،
فَدَنَا مِنْهُ الْأَمِيرُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، فَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ،
فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَقَالَ مُتَعَجِّبًا: «مَا بِالِي لَا أَسْمَعُ مِنْ أَحَدٍ رَدَّ تَحِيَّتِي! أَنَا نَمُّ أَنْتَ
كَأَصْحَابِكَ أَمْ أَصَمُّ؟» فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَتَحَرَّكَ، فَتَأَمَّلَهُ الْأَمِيرُ فَاحْصًا؛ فَإِذَا هُوَ تِمْتَالٌ
مِنَ النُّحَاسِ لَا حَرَكَ بِهِ.

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «هَذَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ. إِنَّهُ تِمْتَالٌ رَائِعُ الصَّنْعِ، لِإِنْسَانٍ يَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ،
وَلَا يُعْوِزُهُ غَيْرُ النُّطْقِ. وَمَا أَظُنُّ أَصْحَابَهُ إِلَّا كَذَلِكَ.»
ثُمَّ أَخَذَ الْمَفَاتِيحَ مِيمًا بَابَ الْمَدِينَةِ، وَفَتَحَ الْأَقْفَالَ، وَرَفَعَ الْمَزَالِيحَ، وَأَزَاحَ الْمَتَارِيِسَ،
وَجَذَبَ الْبَابَ جَذْبَةً قَوِيَّةً، فَاِنْفَتَحَ فِي جَلْبَةٍ وَقَعْقَعَةٍ.

فَفَرِحَ جُنُودُهُ بِبِنَاجِهِ، وَتَعَالَتْ صَيْحَاتُ الْإِعْجَابِ وَالْإِكْبَارِ، وَالْفَرَحِ وَالِاسْتَبْشَارِ، بِمَا
ظَفَرَ بِهِ الْأَمِيرُ مِنْ فَوْزٍ كَبِيرٍ، حَامِدِينَ اللَّهَ عَلَى نَجَاحِ مَسْعَاهُ.

مدينة النحاس



الفصل الثالث

(١) بَيْنَ الْجَيْشِ وَأَمِيرِهِ

وَحَثِيّ الْأَمِيرُ أَنْ يَتَعَرَّضَ جَيْشُهُ لِلْخَطَرِ إِذَا دَخَلَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الْمَسْحُورَةَ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِهَا؛ فَأَمَرَ جَيْشَهُ بِالْبَقَاءِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ حَتَّى يَزْتَادَ أَسْوَاقَهَا، وَيَتَعَرَّفَ حَبَايَاهَا وَأَسْرَارَهَا، فَإِذَا اطْمَأَنَّ عَلَى سَلَامَةِ جَيْشِهِ أَذِنَ لَهُ فِي الدُّخُولِ. وَحَثِيّ أَصْحَابُ الْأَمِيرِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُهُمُ لِلْخَطَرِ إِذَا دَخَلَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الْمَسْحُورَةَ. وَضَاعَفَ مِنْ حَوْفِهِمْ عَلَيْهِ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ مَصَارِعِ إِخْوَانِهِمْ وَقَائِدِهِمْ، فَرَاخُوا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفَّ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ، وَأَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ — أَوْ لِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ — فِي ارْتِيَادِ الْمَدِينَةِ قَبْلَهُ؛ لِيَجَنَّبَهُ الْأَخْطَارَ. وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ أَصَرَ عَلَى رَأْيِهِ، وَأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنِ رَجَائِهِمْ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَفْدِيَ جَيْشَهُ بِنَفْسِهِ؛ فَلَمْ يَسْعَهُمْ غَيْرُ الْخُضُوعِ لِرَأْيِهِ.

(٢) فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ

وَمَشَى الْأَمِيرُ فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ بِضَعِّ خُطُوتِهِ، فَرَأَى رَجُلًا واقفًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَيَمُدُّ يَدَهُ بِالتَّحِيَّةِ فِي بَشَاشَةٍ وَلُطْفٍ؛ فَأَسْرَعَ الْأَمِيرُ إِلَى تَحِيَّتِهِ، وَمَدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ، فَوَجَدَهُ جَامِدًا لَا يَتَحَرَّكُ. وَتَأَمَّلَهُ فَإِذَا هُوَ تَمَثُّالٌ مِنَ النَّحَاسِ. وَمَشَى الْأَمِيرُ خُطُوتًا قَلِيلَةً، فَرَأَى جَمَاعَةً يَتَشَاجِرُونَ، وَقَدْ أَمْسَكَ بَعْضُهُمْ بِتَلَابِيحِ رَجُلٍ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِمْ، لِيُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ، فَوَجَدَهُمْ جَمِيعًا تَمَثُّالًا جَامِدَةً.



ثُمَّ مَشَى فِي الْمَدِينَةِ بِضَعِ خُطَوَاتٍ، فَرَأَى رَجُلًا واقِفًا فِي عُرْضِ الطَّرِيقِ، فَدَنَا مِنْهُ لِيَتَأَمَّلَهُ، فَإِذَا هُوَ تَمَثَّالٌ لَا حَرَكَةَ بِهِ، فَاسْتَدَّ بِالْأَمِيرِ الْعَجَبَ، وَاسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى كُلَّ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ عَيْنَاهُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يَتَحَرَّكُونَ. وَقَابَلَ عَجُوزًا عَلَى رَأْسِهَا أَثْوَابَ اشْتَرَتْهَا مِنْ دُكَّانِ ثَوَابٍ، فَدَنَا مِنْهَا، وَتَأَمَّلَهَا، فَلَمْ يَرَ أَمَامَهُ غَيْرَ تَمَثَّالٍ. وَرَأَى جَمَهْرَةً مِنْ نِسَاءٍ وَصِبْيَانٍ وَأَطْفَالٍ، وَشَبَابٍ وَكُهُولٍ، وَصَبَايَا وَعَجَائِزَ لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ يَتَحَرَّكُ أَوْ يَتَكَلَّمُ، فَهُمْ تَمَثَّالٌ لَا تُشِيرُ بِطَرْفٍ (بِعَيْنٍ)، وَلَا تَنْطِقُ بِحَرْفٍ.

(٣) أسواقُ المدينةِ

وَاسْتَأْنَفَ الْأَمِيرُ سَيْرَهُ، فَوَجَدَ أَسْوَاقًا أَرْبَعًا، فَدَخَلَهَا — وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى — فَوَجَدَ كُلَّ مَنْ فِيهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَنَاسٍ، تَمَثَّالٌ مَصْبُوبَةٌ مِنَ النُّحَاسِ.
هَذِهِ دُكَاكِينُ الصُّنَاعِ وَالتَّجَارِ مَفْتُوحَةٌ الْأَبْوَابِ، مَعْرُوضَةٌ السَّلْعِ، مَصْفُوفَةٌ البَضَائِعِ، مُعَلَّقَةٌ الْمَوَازِينِ، أَصْحَابُهَا وَزَائِرُهَا تَمَثَّالٌ لَا تَعِي وَلَا تَنْطِقُ.

هَذَا حَدَادُ فَارِعِ الطُّولِ، مَفْتُولُ السَّاعِدَيْنِ، يَفِيضُ نَشَاطًا وَهُوَّةً، وَقَدْ رَفَعَ مَطْرَقَتَهُ لِيَهْوِيَ بِهَا عَلَى السَّنْدَانِ، فَبَقِيَتْ ذِرَاعُهُ مَمْدُودَةً، وَمَطْرَقَتُهُ مُعَلَّقَةٌ فِي الْفَضَاءِ، وَأَمَامَهُ صَبِيهُ نَافِحِ الْكَبِيرِ، جَامِدٌ كَمُعَلِّمِهِ.

وَهَذَا نَجَارٌ يَشُقُّ لَوْحًا كَبِيرًا بِمِنْشَارِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مُنْتَصَفَهُ، وَوَقَّفَ حَيْثُ هُوَ لَا حَرَكَ بِهِ.

وَذَلِكَ زِيَّاتٌ نَصَبَ مِيزَانَهُ، وَأَمَامَهُ الْبَصَائِعُ مِنْ جُبْنٍ وَزَبْتُونٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، هَامِدًا لَا يَتَحَرَّكُ. وَهَذَا تِيَّانٌ يَبِيعُ التَّيْنَ، وَتَمَارٌ يَبِيعُ التَّمْرَ (الْبَلَحَ) وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمَا فَاكِهَانِيٌّ يَبِيعُ الْفَاكِهَةَ، يَلِيهِ دَقِيقِيٌّ يَبِيعُ الدَّقِيقَ.

وَمَشَى خُطُواتٍ قَلِيلَةً فَرَأَى جَدًّا لَا يَبِيعُ الطُّيُورَ، وَجَزَّارًا يَبِيعُ اللَّحْمَ، وَرِءَاسًا يَبِيعُ الرُّءُوسَ، وَسَمَانًا يَبِيعُ السَّمْنَ، وَدَهَانًا يَبِيعُ الدُّهْنَ، وَبَيَاضًا يَبِيعُ الْبَيْضَ، وَجَبَانًا يَبِيعُ الْجُبْنَ، وَعَسَلًا يَبِيعُ الْعَسَلَ، وَخَبَّازًا يَبِيعُ الْخُبْزَ.

ثُمَّ سَارَ الْأَمِيرُ إِلَى سُوقِ ثَانِيَةٍ، فَرَأَى دَكَكَيْنِ الْبَرَازِيْنَ وَالتَّوَابِينَ مَمْلُوءَةً بِأَنْوَاعِ الثِّيَابِ، مِنْ الْقَطَنِ وَالكِتَانِ، وَالْحَزْرَ وَالْحَرِيرِ، وَالدَّبِيحِ الْمُنْسُوجِ بِالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ وَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَمَا إِلَيْهَا مِنْ مُخْتَلَفِ الثِّيَابِ.

وَرَأَى الْفَرَّائِينَ يَبِيعُونَ الْفِرَّاءَ، وَالتَّوَشَّائِينَ يَعْملُونَ التَّوَشِيَّ، وَالتَّرْفَائِينَ يَرْفَأُونَ الثِّيَابَ، وَالتَّهْدَابِينَ يَفْتَلُونَ الْخَيْطَ، وَالتَّنَجَادِينَ يَخِيطُونَ الْفُرْشَ وَالتَّوَسَائِدَ، وَالتَّكْوَاتِينَ يَكُونُ الثِّيَابَ، وَالتَّابَارِينَ يَصْنَعُونَ الْإِبْرَ، وَالتَّنَسَّاجِينَ يَنْسُجُونَ الثِّيَابَ، وَالتَّحْدَائِينَ يَصْنَعُونَ الْأَحْذِيَّةَ، وَإِلَى جَانِبِهِمْ طَائِفَةٌ مِنَ الصَّبَاغِينَ وَالتَّابَاغِينَ.

ثُمَّ انْتَقَلَ الْأَمِيرُ إِلَى سُوقِ ثَالِثَةٍ، فَرَأَى جَمَاعَةً مِنَ الصَّبَاغِ وَتَجَّارِ اللَّوْلُؤِ وَأَمَامَهُمْ نَفَائِسُ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ كَالْيَاقُوتِ وَالتَّزْمُرْدِ وَالتَّارْجَانِ (صِغَارِ اللَّوْلُؤِ)، وَكُلُّهُمْ — بَيْنَ وَاقِفٍ وَجَالِسٍ — سَاكِنٌ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَنْطِقُ.

وَرَأَى الرَّجَّاجِينَ يَصْنَعُونَ الرَّجَّاجَ، وَالتَّخَرَّافِينَ يَبِيعُونَ التَّخَرَّفَ، وَالتَّفَخَّارِينَ يَصْنَعُونَ الْأَوَانِيَّ الْفَخَّارَ، وَالتَّجَلَّائِينَ يَجْلُونَ الْإِنْيَةَ، وَالتَّعَوَّاجِينَ يَبِيعُونَ الْعَاجَ، وَالتَّسَكَّالِينَ يَعْرضُونَ السَّكَّالِينَ، وَالتَّشَعَّابِينَ يُصْلِحُونَ مَا تَصَدَّعَ مِنَ الْأَوَانِي.



وَمَشَى خُطُواتٍ قَلِيلَةً فَراى صَيْدِلِيًّا يَبِيعُ الأَدويةَ، وَإلى جِوارِهِ مُجَبَّرًا يَجْبُرُ العِظامَ المَكسُورَةَ. وَأنتهى بِهِ المِطافُ إلى السُّوقِ الرَّابِعةِ حَيْثُ وَجَدَ النِّحاسينَ يَبِيعُونَ الدَّوابَّ: فَهَذَا مَعازُ يَصْحَبُ مَعِيزَهُ، وَذاكِ كِلابٌ مَعَهُ كِلابُهُ، وَمَنْ بَعَدَهُما شائِيٌّ يَصْحَبُ شاءَهُ وَنِعاجَهُ. وما زالَ الأَميرُ يَنْتَقِلُ مِنْ سَوقٍ إلى سَوقٍ، وَمِنْ طَريقٍ إلى طَريقٍ، فَلَا يَرى إِلا رِوائِعَ مِنَ التَّمائيلِ النُّحاسِيَّةِ، حَيوانِيَّةً وَإنسانِيَّةً.

(٤) حَيْرَةُ الأَميرِ

شَدَّ ما أَدَهَشَهُ وَحَيَّرَ عَقْلَهُ أَلا يَرى في المَدِينَةِ كُلِّها أَحَدًا مِنَ الأَحياءِ! وا عَجَبًا! أليسَ فيها مَنْ يَنْطِقُ أو يُجيبُ!

يا لَغرابةَ ما يَشْهَدُ! حَتَّى الكِلابُ وَالقِطَطَةُ وَسائِرُ الطُّيورِ وَالحيوانِ كُلُّها تَمائيلُ هامِدَةٌ مِنَ النُّحاسِ، فاقِدَةُ الحِياةِ! يا لَهولَ ما تَراهُ عَيناهُ! أَكلُّ ما في المَدِينَةِ تَمائيلُ لا حَرَكةَ بِها ولا حِسنَ، لا يَتَرَدَّدُ بَينَ جَنابَتِها نَفْسُ!

الفصل الثالث

تُرَى: أَيُّ سَاحِرٍ غَضِبَ عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَسَلَّطَ نِقْمَتَهُ عَلَى أَهْلِهَا، وَمَسَخَ سَاكِنِيهَا؛ فَحَوَّلَ أَجْسَادَ مَنْ فِيهَا مِنْ حَيَوَانَ وَنَاسٍ، تَمَاتِيلَ مُبَدَّعَةً مِنَ النَّحَاسِ، تُحَيَّلُ لِرَائِيهَا أَنَّهَا تَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ. وَلَكِنَّ أَصْحَابَهَا لَا يَتَحَرَّكُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ، يُسَائِلُهُمْ فَلَا يُجِيبُونَ، وَيُحَاوِرُهُمْ فَلَا يَنْطِقُونَ.

الفصل الرابع

(١) في القصر الملكيِّ

وَمَا زَالَ الْأَمِيرُ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى قَصْرِ عَلِيِّ الْبُنْيَانِ، رَائِحِ النَّصَاوِيرِ، فَلَمَّا دَخَلَهُ رَأَى جَمَاعَةً مِنَ الْجُنْدِ وَالْحَرَسِ يَقْفُونَ عَلَى الْأَبْوَابِ، وَخَلَفَهُمْ جَمَاعَةٌ أُخْرَى جَالِسِينَ عَلَى أَرَاكِ فَاحِرَةٍ، صُفَّتْ عَلَيْهَا الْوَسَائِدُ الْحَرِيرِيَّةُ، مُوشَّاةً بِأَجْمَلِ النَّقُوشِ، وَقَدْ ارْتَدَّوْا أَبْهَى الثِّيَابِ؛ يُخَيَّلُونَ إِلَيْكَ أَنَّ دَمَ الْحَيَاةِ يَجْرِي فِي عُرُوقِهِمْ، فَإِذَا دَانِيَتْهُمْ وَجَدْتَهُمْ تَمَاثِيلَ جَامِدَةٍ.

وَمَشَى فِي جَنَابَاتِ الْقَصْرِ، فَرَأَى قَاعَةً فَسِيحَةً يَجْلِسُ عَلَيْهَا وَزَرَاءُ الدَّوْلَةِ وَأَمْرَاؤُهَا. وَحَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ فَأَبْصَرَ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ كُرْسِيًّا مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيذِ مُرْصَعًا بِأَنْفِيسِ الْجِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ، وَقَدْ جَلَسَ فِيهِ الْمَلِكُ فِي أَفْحَمِ حُلِّهِ، وَرَأَى عَلَى مَفْرَقِهِ تَاجًا مُكَلَّلًا بِنَفِيسِ الدَّرِّ وَثَمِينِ اللَّكَلِيِّ، تَشَعُّ مِنْهَا الْأَضْوَاءُ، فَتُحِيلُ الظَّلَامَ نُورًا.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى قَاعَةِ أُخْرَى، فَرَأَى طَائِفَةً مِنَ الْجَوَارِي وَالْوَصَائِفِ، حَوْلَ مَلِيكَتِهِنَّ، لِتَلْقَى إِشَارَتَهَا، مُنَاهَبَاتٍ لِتَنْفِيذِ رَغْبَتِهَا.

وَعَجِبَ الْأَمِيرُ مِنْ بَرَاعَةِ الْمُهَنْدِسِينَ، وَافْتِنَانِهِمْ فِي هَنْدَسَةِ الْقَصْرِ وَنَقْشِهِ، وَتَنْسِيقِ آثَاتِهِ وَقَرُوشِهِ، وَرَوْعَةِ تَصَاوِيرِهِ، وَسَنَا مَصَابِيحِهِ الْبِلُّورِيَّةِ، وَثُرَيَّاتِهِ الْمُتَالِّقَةِ بِنَفَائِسٍ مِنَ الدَّرِّ الْيَتِيمِ (النَّادِرِ).

(٢) حوار الأميرين

وَاسْتَأْنَفَ سَيْرُهُ مُتَنَقِّلاً مِنْ عَجَبٍ إِلَى عَجَبٍ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَاعَةٍ فَاخِرَةٍ، فَرَأَى فَتَاةً جَمِيلَةً
الْمَحْيَا، مُشْرِقَةَ الطَّلَعَةِ تَقْرَأُ فِي كِتَابٍ، وَمَا إِنَّ لِمَحْتَهُ حَتَّى خَفَّتْ إِلَيْهِ تَسْتَقْبِلُهُ، وَتَبْدُرُهُ
بِالْتَّحِيَّةِ فِي أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، وَتُنَادِيهِ بِاسْمِهِ مُرَحَّبَةً بِهِ، فَرَحَانَةٌ بِمَقْدَمِهِ، فَاشْتَدَّ عَجَبُ الْأَمِيرِ
مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ، فَقَالَ لَهَا مَدْهُوشًا: «كَيْفَ عَرَفْتَنِي، وَنَادَيْتَنِي بِاسْمِي؟»

فَقَالَتْ لَهُ مُبْتَسِمَةً: «لَا تَعْجَبْ مِمَّا تَرَى وَتَسْمَعُ؛ فَأَنَا أَتْرَقُبُ قُدُومَكَ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ.»
فَقَالَ لَهَا مُتَحَيِّرًا: «تَتَرَقَّبِينَ قُدُومِي؟ كَيْفَ! وَمَنْ أَنْبَأَكَ عَنِّي؟ وَمَا بَالُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ قَدْ
مُسِّخَ سَاكِنُوهَا، وَتَحَوَّلَ قَاطِنُوهَا تَمَاثِيلَ مِنَ النُّحَاسِ، وَبَقِيَتْ أَنْتِ وَحَدَكِ سَالِمَةً بِنَجْوَةٍ
مِمَّا لَحِقَ أَهْلِهَا مِنَ الْمَسْخِ؟! أَيُّ الْغَازِ أَرَى وَأَحَاجِيَّ!؟»

فَقَالَتْ لَهُ الْفَتَاةُ مُتَلَطِّفَةً: «هَا أَنَا نِي أَفْضِي إِلَيْكَ بِمَا تُرِيدُ مِنْ أَنْبَاءٍ إِذَا تَفَضَّلْتَ
بِالْجُلُوسِ، وَأَعَزَّتْنِي سَمْعَكَ وَأَنْتِبَاهُكَ.»

فَقَالَ لَهَا: «مَا أَشَوْقَنِي إِلَى تَعْرِفِ أَسْرَارِ مَا رَأَيْتُ مِنَ الْغَازِ وَمُعَمَّيَاتِ!»



(٣) حَدِيثُ «رَائِعَةَ»

فَأَنْشَأَتِ الْفَتَاةُ تَقُولُ: «تَسْأَلُنِي مَنْ أَكُونُ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتُ اسْمَكَ، وَتَرَقَّبْتُ قُدُومَكَ؟ وَمَا سِرُّ هَذِهِ الْمَدِينَةِ؟ وَلِمَاذَا مَسَّحَ أَهْلُهَا وَبَقِيَتْ وَحْدِي نَاجِيَةً مِنَ السَّحْرِ؟ فَأَعْلَمُ — يَا سَيِّدِي الْأَمِيرَ الْجَلِيلَ — أَنَّي «رَائِعَةَ» بِنْتُ مَلِكِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ. وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ أَبِي وَهُوَ جَالِسٌ فِي صَدْرِ دِيوَانِهِ، وَأَنْتِ سَائِرٌ فِي طَرِيقِكَ إِلَيَّ. وَقَدْ كَانَ ذَائِعَ الصَّيْتِ بَيْنَ مُلُوكِ «الْهِنْدِ»، وَكَانَ لَنَا جَارٌ اسْمُهُ «مَرْمُوشٌ» يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَمَرَّ بِحَاضِرَةِ مُلْكِهِ — ذَاتَ يَوْمٍ — نَاسِكٌ مِنْ كِبَارِ النَّسَاكِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْقِنَاعَةِ وَالرُّهْدِ، وَرَجَاحَةَ الْعَقْلِ وَسَعَةَ الْعِلْمِ، فَلَمْ يَقْصُرْ فِي إِرْشَادِ النَّاسِ وَتَنْوِيرِ بَصَائِرِهِمْ، وَلَمْ يَأَلْ جُهْدًا فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى عِبَادَةِ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ، وَتَنْفِيرِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَالْتَفَّ حَوْلَهُ النَّاسُ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْمُرِيدُونَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَرَفَ أَمْرَهُ، وَذَاعَ صَيْتُهُ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَمْعِ الْمَلِكِ، فَأَمَرَ بِاسْتِدْعَائِهِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَأَلَهُ عَمَّا نَمَى إِلَيْهِ، فَلَمْ يَكْتُمْهُ النَّاسِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَتَلَطَّفُ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

فَغَضِبَ الْمَلِكُ مِمَّا سَمِعَ، وَتَعَجَّبَ مِنْ جُرْأَةِ النَّاسِكِ، وَتَوَعَّدَهُ بِالْعِقَابِ إِذَا لَمْ يَكْفُفْ عَنْ هَذَيَانِهِ، وَيُقْلِعَ عَنْ عِنَادِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِبِ النَّاسِكُ لِوَعِيدِهِ، وَلَمْ يُبَالِ بِتَهْدِيدِهِ.

فَاشْتَدَّ غَضَبُ «مَرْمُوشٍ» عَلَيْهِ، وَأَمَرَ بِسَجْنِهِ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِإِحْرَاقِهِ حَيًّا. وَهَيَأَ لَهُ نَارًا جَاحِمَةً وَسَطَ الْمَيْدَانِ الْكَبِيرِ، لِيَشْهَدَ النَّاسُ جَزَاءَهُ عَلَى مَا أَبْدَاهُ مِنْ صِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ فِي دَعْوَتِهِ. وَذَاعَتْ قِصَّةُ النَّاسِكِ فِي أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِيَرَوْا مَصْرَعَهُ، فَلَمَّا سَعُرَتِ النَّارُ وَنَهِيَ الْجُنْدُ، وَاسْتَعَدُّوا لِإِلْقَاءِ النَّاسِكِ فِي أَتُونِهَا الْمُلتَهَبِ، غَامَتِ السَّمَاءُ فَجَاءَةً، وَبَرَقَ الْبَرْقُ، وَجَلَجَلَ الرَّعْدُ، ثُمَّ هَمَّتِ الْأَمْطَارُ سَيُولًا، فَأَطْفَأَتِ النَّارَ، وَسَادَ الْهَرَجُ وَالْمَرْجُ، وَتَدَافَعَ النَّاسُ إِلَى بُيُوتِهِمْ حَتَّى لَا تُعْرِقَهُمُ السُّيُولُ الْمُتَدَفِّقَةُ. وَهَكَذَا أُتِيحَتِ الْفُرْصَةُ لِلنَّاسِكِ الصَّالِحِ فَأَمَكَّنَتْهُ مِنَ الْفِرَارِ.

وَبَعْدَ سَاعَاتٍ صَحَا الْجَوُّ وَانْقَشَعَ الْمَطَرُ، وَبَحَثَ الْجُنُودُ عَنِ النَّاسِكِ، فَلَمْ يَعْثُرُوا لَهُ عَلَى أَثَرٍ. وَمَشَى النَّاسِكُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى بِلَادِ «النُّبَّتِ» يُوَاصِلُ السَّيْرَ لَيْلَ نَهَارٍ حَتَّى بَلَغَ مَدِينَتَنَا. وَكَانَ أَبِي يَسْمَعُ بِصَلَاحِهِ، وَيُعْجَبُ بِتَفْوَاهِ، فَلَمَّا أَفْضَى إِلَى أَبِي بِقِصَّتِهِ اسْتَقْبَلَهُ

أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ، وَرَحَبَ بِهِ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ. فَلَبِثَ النَّاسِكُ عِنْدَنَا أَيَّامًا قَلِيلًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ أَبِي فِي اسْتِثْنَائِهِ السَّفَرِ عَائِدًا إِلَى بَلَدِهِ.

فَتَشَبَّثَ بِهِ أَبِي، وَالْحَّحَّ عَلَيْهِ فِي الْبَقَاءِ عِنْدَهُ، فَتَلَطَّفَ النَّاسِكُ فِي الْأَعْتِدَارِ إِلَيْهِ، وَمَا زَالَ يُلْحَفُ فِي الرَّجَاءِ، حَتَّى أَدِنَ لَهُ أَبِي فِي السَّفَرِ، عَلَى كُرْهِ مِنْهُ. وَكَأَنَّمَا خَشِيَ النَّاسِكُ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى مَكَانِهِ عَيُونُ الْمَلِكِ «مَرْمُوشٍ» فَيَسْتَبْكُ كِلَاهُمَا فِي حَرْبٍ طَاحِنَةٍ مِنْ جَرَائِهِ، وَقَدْ تَحَقَّقَ مَا خَشِيَهُ النَّاسِكُ، فَلَمْ يَنْقُضْ عَلَى سَفَرِهِ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى وَقَدَّ عَلَى أَبِي رَسُولٌ مِنْ «مَرْمُوشٍ» عَابِدِ الْأَصْنَامِ، يَتَوَعَّدُهُ فِيهِ بِالْحَرْبِ إِذَا لَمْ يُسَلِّمْ إِلَيْهِ النَّاسِكُ الَّذِي حَلَّ بِمَدِينَتِهِ ضَيْفًا. وَغَضِبَ أَبِي مِنْ جُرْأَةِ جَارِهِ، وَطَرَدَ رَسُولَهُ شَرَّ طَرْدَةٍ، بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ أَنْ يُخْبِرَ مَلِيكَهُ أَنَّ النَّاسِكَ قَدْ سَافَرَ مُنْذُ أَيَّامٍ، وَأَنَّهُ لَوْ بَقِيَ عِنْدَهُ لَمَا قَبِلَ أَنْ يُسَلِّمَهُ إِلَيْهِ.

وَكَانَ أَبِي يَعْرِفُ قُوَّةَ «مَرْمُوشٍ» وَشِدَّةَ بَأْسِهِ، فَأَعَدَّ لِلِقَائِهِ عُدَّتَهُ، وَحَصَّنَ مَدِينَتَهُ، وَغَلَقَ أَبْوَابَهَا الْعَالِيَةَ، وَأَعَدَّ الْعُدَّةَ لِرَدِّ عُدْوَانِ الْغَزَاةِ.

وَذَا صَبَاحٍ سَمِعْتُ صَوْتَ بُوقٍ عَالِيًا يُدَوِّي فِي الْفُضَاءِ، فَيَكَادُ يُصْمُّ الْأَذَانَ.

فَخِيلَ إِلَيَّ — لِهَوْلٍ مَا سَمِعْتُ — أَنَّ آخِرَةَ الْعَالَمِ قَدْ حَانَتْ. وَخَرَجْتُ أَمْشِي فِي أَنْحَاءِ الْقَصْرِ هَائِمَةً، فَوَجَدْتُ كُلَّ مَنْ رَأَيْتُ — مِنْ وَصَائِفٍ وَوَصِيْفَاتٍ، وَنِسَاءٍ وَفَتَيَاتٍ — تَمَاطِيلَ صُمَّا مِنَ النُّحَاسِ. فَأَسْرَعْتُ إِلَى دِيْوَانِ أَبِي اسْتَجْلِي الْخَبْرَ، فَرَأَيْتُهُ جَالِسًا مَعَ حَاشِيَتَيْهِ وَسِرَاةِ مَمْلَكَتِهِ، وَكُلُّهُمْ تَمَاطِيلُ نُحَاسِيَّةٍ. وَأَنْدَفَعْتُ فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَأَسْوَاقِهَا، فَلَمْ تَقَعْ عَيْنَايَ إِلَّا عَلَى تَمَاطِيلٍ نُحَاسِيَّةٍ. وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ مُصْدَاقَ مَا أَقُولُ، وَشَهَدْتَ بِعَيْنِكَ وَأَبْصَرْتَ بِنَاضِرِكَ: كَيْفَ تَحَوَّلَتِ الْكِلَابُ وَالْقِطَطَةُ وَالْجِرْدَانُ وَالطُّيُورُ، تَمَاطِيلَ صُمَّا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَتَحَرَّكُ!

وَقَضَيْتُ يَوْمًا رَاعِبًا، وَالَيْلَةَ سَاهِرَةً، لِهَوْلٍ مَا رَأَيْتُ. ثُمَّ غَلَبَنِي النَّوْمُ لِطَوْلٍ مَا كَابَدْتُ مِنَ الضَّنَى وَالسَّهْرِ، فَرَأَيْتُ النَّاسِكَ يَزُورُنِي فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ، وَيَرَبِّتُ كَتَفِي مُتَلَطِّفًا، وَيَقُولُ لِي مُبْتَسِمًا: «لَا تَخَافِي يَا «رَائِعَةُ» وَلَا تَحْزَنِي، فَلَنْ يُصِيبَكَ سُوءٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَسَيَكُونُ خَلَاصُكَ وَخَلَاصُ كُلِّ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى يَدِ رَجُلٍ صَالِحٍ شَجَاعٍ، اسْمُهُ الْأَمِيرُ «إِقْبَالُ»، وَسَيَشْتَرِكُ مَعَهُ أَحْوَكُ الْأَمِيرِ «فَاضِلُ»، فِي كَشْفِ الْعُمَّةِ وَزَوَالِ السُّحْرِ عَنِ الْمَدِينَةِ وَسَاكِنِيهَا، فَاصْبِرِي عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَلَا تَخْشِي أَنْ تَهْلِكِي جُوعًا؛ فَقَدْ بَقِيَتْ لَكَ مِنْ بَيْنِ أَشْجَارِ الْحَدِيقَةِ

شَجَرَتَا تَيْنٍ وَنَفَاحٍ، لَمْ تُمَسَّ بِسُوءٍ، فَكُلِي مِنْهُمَا كُلِّمَا جُعْتِ، وَأَشْرَبِي مِنَ النَّبْعِ الصَّافِي الَّذِي يَسْقِيهِمَا، وَأَشْكُرِي اللَّهَ عَلَى مَا هَيَّأَ لَكَ مِنْ سَلَامَةٍ وَفَوْزٍ بِالسَّعَادَةِ، وَاتَّجِهِي إِلَيْهِ، وَأَخْلِصِي فِي عِبَادَتِهِ.»

وَكَانَ فِي قَصْرِنَا مَكْتَبَةٌ حَافِلَةٌ بِنَفَائِسِ الْمَخْطُوطَاتِ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهَا — وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَكُونَ الْمَحْنَةُ قَدْ أَصَابَتْهَا — فَوَجَدْتُهَا كَمَا هِيَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَكَانَ لِي فِي الْقِرَاءَةِ حَيْرٌ عَزَاءً.»
فَلَمَّا سَمِعَ الْأَمِيرُ «إِقْبَالَ» حَدِيثِ الْأَمِيرَةِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَجَبُ، وَسَأَلَهَا مُتَحَيِّرًا: «وَكَيْفَ نَجَوْتِ وَحَدَكِ مِنْ سِحْرِ السَّاحِرِ، فَلَمْ تَتَحَوَّلِي تَمَثَالًا مِنَ النُّحَاسِ، كَمَا تَحَوَّلَ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ وَنَاسٍ؟»

(٤) فَتَاةُ الْجِنِّ

فَقَالَتِ الْفَتَاةُ: «لِذَلِكَ نَبَأٌ عَجِيبٌ، أَنَا أَقْضُهُ عَلَى سَيِّدِي: بَيْنَمَا كَانَتْ أُمِّي تَسِيرُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَحَدِ الْمُرُوجِ الْمُحِيطَةِ بِقَصْرِنَا الرَّيْفِيِّ إِذْ رَأَتْ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهَا حَيَّةً بَيْضَاءَ، تَجَدُّ مُسْرَعَةً فِي الْهَرَبِ، وَخَلْفَهَا تُعْبَانُ أَسْوَدٌ يَجْرِي فِي أَثَرِهَا مُسْرَعًا فِي الطَّلَبِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُدْرِكَهَا وَيُمْسِكُ بِرَأْسِهَا، وَيُلْفُ ذَيْلَهُ عَلَى ذَيْلِهَا، وَيُوشِكُ أَنْ يَفْتِكَ بِهَا.

فَأَسْرَعْتُ أُمِّي إِلَى نَجْدَةِ الْحَيَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَقَدَفَتِ التُّعْبَانَ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ فَحَطَمَتْ رَأْسَهُ وَقَتَلَتْهُ عَلَى الْفَوْرِ. وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتَهَا حِينَ رَأَتْ التُّعْبَانَ الْأَسْوَدَ يَتَحَوَّلُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصَرِ كَوْمَةً مِنْ رَمَادٍ، وَتَنْتَفِضُ الْحَيَّةُ الْبَيْضَاءُ، فَإِذَا هِيَ فَتَاةٌ رَائِعَةٌ الْجَمَالِ، فِي رِيْعَانِ صِبَاها، وَمُقْتَبَلِ شَبَابِها، ثُمَّ تَقُولُ لِأُمِّي شَاكِرَةً: «هَيْهَاتَ أَنْ يَضِيعَ عِنْدِي يَا مَلِيكَةَ الْإِنْسِ، مَا أَسْدَيْتِ إِلَيَّ مِنْ مَعْرُوفٍ! وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ أَنْكَ أَنْقَذْتِنِي مِنْ عَدُوِّي اللَّدُودِ بَعْدَ أَنْ أَوْشَكَ أَنْ يَهْلِكَنِي. وَلَعَلَّ اللَّهَ يُقَدِّرُنِي عَلَى رَدِّ الْجَمِيلِ إِلَيْكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ.»

ثُمَّ أَشَارَتْ فَتَاةُ الْجِنِّ بِيَدِها، فَانْشَقَّتِ الْأَرْضُ، وَسُرْعَانَ مَا غَاصَتْ فِيها وَاسْتَخَفَّتْ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَعَادَتْ الْأَرْضُ كَمَا كَانَتْ.

(٥) هَدِيَّةُ الْجَنِّيَّةِ

وَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْحَادِثِ أَعْوَامٌ، ثُمَّ حَضَرَتْ فَتَاةَ الْجِنِّ إِلَى أُمِّي يَوْمَ وَلَدَتْ أُخِي «فَاجِلاً»،
وَأَهْدَتْ إِلَى أُمِّي قَارُورَةً صَغِيرَةً مَلَأْتُهَا مِنْ نَهْرِ «عَبْقَرٍ»، وَأَوْصَتْهَا أَنْ تَمْرُجَ بِلَبِنِهَا قَطْرَاتٍ
مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تَسْقِي وَلِيدَهَا هَذَا الْمِزَاجَ، فَلَنْ تَفْرُعَ الرَّجَاةُ حَتَّى يُصْبِحَ الْوَلِيدُ أَمْنًا مِنْ
سِحْرِ كُلِّ سَاحِرٍ، وَكَيْدِ كُلِّ كَائِدٍ.

فَشَكَرْتُ لَهَا أُمِّي هَدِيَّتَهَا، وَاتَّبَعْتُ نَصِيحَتَهَا.

ثُمَّ جَاءَتْ فَتَاةَ الْجِنِّ يَوْمَ وَلَدْتَنِي أُمِّي، فَأَحْضَرَتْ لَهَا مِثْلَ الْقَارُورَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي
أَحْضَرَتْهَا يَوْمَ وُلِدَ أُخِي، وَأَوْصَتْهَا أَنْ تَسْقِيَنِي مِنْهَا، كَمَا سَقَتْ أُخِي مِنْ قَبْلُ.
وَقَدْ صَدَقَتْ فَتَاةَ الْجِنِّ فِيمَا قَالَتْ؛ فَقَدْ مُسَخَّ كُلُّ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ إِنْسَانٍ، وَطَيْرٍ
وَحَيَوَانٍ، وَنَجُوتُ وَحُدُي مِنَ الْمُسَخِّ؛ بِفَضْلِ مَا شَرِبْتُ مِنْ مَاءِ «عَبْقَرٍ».»
وَمَا إِنْ أَتَمَّتِ الْأَمِيرَةُ حَدِيثَهَا حَتَّى أَقْبَلَ شَابُّ بَادِي الْقُوَّةِ، لَمْ يَشْكُ الْأَمِيرُ حِينَ رَأَاهُ،
أَنَّهُ شَقِيقُ الْفَتَاةِ.

الفصل الخامس

(١) شقيق الأميرة

وَابْتَدَرَهُمَا الْفَتَى مُحِيًّا فِي ابْتِسَامٍ، وَأَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، مُرَحَّبًا بِالْأَمِيرِ «إِقْبَالِ»، مُهَنِّئًا شَقِيقَتَهُ عَلَى زِيَارَةِ الضَّيْفِ الْعَظِيمِ، فَتَعَجَّبَ الْأَمِيرَانِ مِمَّا رَأَيَا وَسَمِعَا، وَسَأَلَاهُ: «كَيْفَ عَرَفْتَ اسْمَ الْأَمِيرِ؟ وَمَنْ أَنْبَأَكَ بِقُدُومِهِ؟»

فَقَالَ لَهُمَا: «لَقَدْ عَرَفْتُ الْكَثِيرَ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَبَقِيَ أَنْ تَعْرِفَا طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِي!»
فَقَالَ الْأَمِيرَانِ: «مَا أَشَوْقَنَا إِلَى حَدِيثِكَ!»

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «لَقَدْ أَبْحَرْتُ — كَمَا تَعْلَمُ أُخْتِي الْعَزِيزَةُ — فِي نُحْبَةٍ مِنْ أَصْحَابِي لِزِيَارَةِ عَمِّي تَلْبِيَّةً لِدَعْوَتِهِ الْكَرِيمَةِ، وَاشْتَرَكْتُ مَعَهُ فِي الْاِحْتِفَالِ بِزَوَاجِ ابْنَتِهِ.

وَكَانَتْ الرَّحْلَةُ سَعِيدَةً مُوقَّعَةً، وَأَقْمْنَا فِي ضَيَافَتِهِ، وَكُنَّا كُلَّمَا هَمَمْنَا بِالْعُودَةِ شَدَّدَ عَلَيْنَا فِي الْبَقَاءِ، فَلَبِثْنَا فِي ضَيَافَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ. ثُمَّ إِذْ لَنَا بِالسَّفَرِ عَلَى كُرْهِ مِنْهُ، وَزَوَدْنَا بِمَا مَلَأَ سَفِينَتَنَا مِنْ هَدَايَاهُ. وَأَوْدَعْنَا تَحِيَّةً لَكَ وَلَأَبِينَا وَسَعْبِهِ الْكَرِيمِ. ثُمَّ قَفَلْنَا عَائِدِينَ، فَقَضَيْنَا عِدَّةَ أَيَّامٍ فِي جَوْ طَيِّبٍ وَرِيحٍ مُعْتَدِلَةٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الثَّلَاثَ عَشَرَ تَغَيَّرَتِ الرِّيحُ فَجَاءَتْ، وَهَبَّتِ الْعَاصِفَةُ شَدِيدَةً عَاتِيَةً تُنْذِرُنَا بِالْغَرَقِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى، فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ دَبَّ الْيَأْسُ إِلَى نَفُوسِنَا، فَتَرَكْنَا السَّفِينَةَ تَحْتَ رَحْمَةِ الرِّيَّاحِ الْهُوجِ، وَالْأَمْوَاجِ الثَّائِرَةِ. وَلَا تَسْأَلَا — أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ — عَنْ دَهْشَتِنَا حِينَ كُنْتِ بَ السَّلَامَةَ لِسَفِينَتِنَا. وَمَا نَدَّرِي بِأَيَّةِ مُعْجَزَةٍ نَجُونَا مِنَ الْغَرَقِ، فَبَلَّغْنَا الْبَرَّ آمِنِينَ.

(٢) نَصِيحَةُ الْمَلَّاحِ

وَمَا إِنْ حَلَلْنَا بِالسَّاحِلِ، حَتَّىٰ بَدَأَ لَنَا الْمَكَانُ مَقْفِرًا لَا أُنَيْسَ بِهِ وَلَا دَيَّارَ، فَمَشِينَا نَزَاتُدَ الْجَزِيرَةِ حَتَّىٰ بَلَّغْنَا غَابَةَ كَثِيفَةً. وَكَانَ مَعَنَا مَلَّاحٌ هَرِمٌ تَعَوَّدَ السَّفَرَ كَثِيرًا إِلَىٰ شَوَاطِئِ الْهِنْدِ مُنْذُ حَدَائِثِهِ، فَحَدَّرْنَا مِنَ الْبَقَاءِ، وَنَصَحَنَا بِالْإِسْرَاعِ فِي تَرْكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُوحِشَةِ، وَحَدَّثَنَا أَنَّ سَكَّانَهَا طَائِفَةٌ مَنِ الْهَمَجِ يَعْبُدُونَ ثُعْبَانًا هَائِلَ الْحَجْمِ، وَقَدْ تَعَوَّدُوا أَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ كُلَّ مَنْ يُوَقِّعُهُ سُوءَ الْحَظِّ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغُرَبَاءِ، فَيَلْتَهُمْ طَعَامًا سَائِعًا شَهِيًّا.

وَقَدْ نَصَحَنَا الْمَلَّاحُ الْمَجْرَبُ أَنْ نَعْجَلَ بِتَرْكِ الْجَزِيرَةِ الرَّاعِبَةِ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَنَا أَهْلُهَا قُرْبَانًا لِمَعْبُودِهِمُ الثُّعْبَانَ.

وَلَمَّا كَانَ «كَاشِفُ» رَبَّانٌ سَفِينَتِنَا يَثِقُ بِذَلِكَ الْمَلَّاحِ، وَلَا يَشْكُ فِي خَبْرَتِهِ وَدُرْبَتِهِ، وَصَدَقَ مَعْرِفَتِهِ بِمَسَالِكِ الْبِحَارِ، لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي قَبُولِ نَصِيحِهِ، وَقَرَّرَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ السَّيْرَ فِي صَبَاحِ عَدِ. وَكَانَ نِعْمَ الرَّأْيِيُّ لَوْ سَافَرْنَا فِي الْحَالِ وَلَمْ نُؤَجِّلِ الرَّحِيلَ إِلَى الصَّبَاحِ. إِذْ نَ لَسَلِمْتَ سَفِينَتُنَا، وَنَجَا رَاكِبُوهَا. وَلَكِنْ لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِي رَدِّ عَادِيَةِ الْقَضَاءِ.

(٣) سُلْطَانُ الْهَمَجِ

وَخَرَجْتُ أَرْتَادُ الْجَزِيرَةِ فِي فَجْرِ الْيَوْمِ التَّالِي، فَرَأَيْتُ زَنْجِيَّةً مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، وَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَلَيَّ عَيْنَاهَا حَتَّىٰ أَسْرَعْتُ بِالْفِرَارِ، فَلَمْ أُعْرِهَا انْتِبَاهًا، وَرَجَعْتُ إِلَىٰ أَصْحَابِي، وَلَبِثْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، رَيْثَمَا أَعَدَدْنَا الْعُدَّةَ لِلسَّفَرِ. وَكَادَ يَتِمُّ لَنَا مَا أَرَدْنَا لَوْ لَمْ يَدْهَمْنَا أَهْلُ الْجَزِيرَةِ وَيَحِيطُوا بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَقْيِدُونَا بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ. وَقَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَىٰ سَفِينَتِنَا عَنُوةً، وَأَنْتَهَبُوا كُلَّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ هَدَايَا وَطُرْفِ.

وَحَمَلْنَا الْهَمَجَ إِلَىٰ سُلْطَانِ الْجَزِيرَةِ أَسْرَى، فَشَهِدْنَا بَيُوتَهُمْ أَشْبَهَ بِالْأَكْوَاخِ وَالْأَعْشَاشِ مِنْهَا بِالْبَيُوتِ. وَرَأَيْنَا سُلْطَانَهُمْ «هَمَلَجَةً»، وَهَذَا هُوَ اسْمُهُ، مُسْتَوِيًّا عَلَىٰ عَرْشِ مَبْنِيٍّ بِالْحِجَارَةِ، مُزَخْرَفٍ بِالْأَصْدَافِ، وَهُوَ عَمَلًا قَارِعُ الطُّولِ، ضَخْمُ الْجُنَّةِ، مَدِيدُ الْقَامَةِ، عَظِيمُ الْهَامَةِ، بَشِعُ الْمُنْظَرِ، دَمِيمُ السَّحْنَةِ، أَشْبَهَ بِشَيْطَانٍ مِنْهُ بِإِنْسَانٍ. وَكَانَتْ بِنْتُهُ الْأَمِيرَةُ «هُسْنَارًا»، وَهِيَ أَفْبَحُ مِنْ أَبِيهَا سَحْنَةً، وَأَضْحَمُ مِنْهُ جُنَّةً، جَالِسَةً بِجَانِبِهِ، وَلَمْ تَكُنْ تَزِيدُ

عَلَى الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهَا. وَقَدْ اضْطَرَّنَا وَزِيرُ الْهَمَجِ، حِينَ مَثَلْنَا بَيْنَ يَدَيْ سُلْطَانِهِ أَنْ نَقْدَمَ
وَإِفْرَاحِ الْإِحْتِرَامِ.

ثُمَّ قَصَّ الْوَزِيرُ عَلَى السُّلْطَانِ وَبَنْتِهِ: كَيْفَ عَثَرَتِ الْجَارِيَةُ عَلَيْنَا، وَاهْتَدَتْ إِلَيْنَا.

(٤) طَعَامُ التُّغْبَانِ

فَابْتَهَجَ السُّلْطَانُ، وَشَكَرَ لَوْزِيرِهِ وَجَارِيَتِهِ وَأَعْوَانِهِ، مَا وَفَّقُوا إِلَيْهِ مِنْ صَيْدٍ ثَمِينٍ. ثُمَّ أَمَرَ
بِحَبْسِنَا فِي مَغَارَةِ الْأَسْرَى لِيُقَدَّمَ وَاحِدٌ مِنَّا فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ قُرْبَانًا لِمَعْبُودِهِمُ الْأَفْعَوَانَ
الْعَظِيمِ.

فَأَطَاعَ الْوَزِيرُ أَمْرَ سُلْطَانِهِ، وَذَهَبَ بِنَا إِلَى الْمَغَارَةِ، حَيْثُ قَدَّمُوا لَنَا — وَفَقَّ تَقَالِيدِهِمْ
— أَلْوَانًا مِنَ الطَّعَامِ، أَلْفُوا أَنْ يُسَمَّنُوا بِهَا الضُّحَايَا وَالْقَرَابِينَ، قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمُوهَا لِلْأَفْعَوَانَ
الْمُعْبُودِ.

وَمَرَّتْ بِنَا الْأَيَّامُ؛ يُقَدَّمُ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — وَاحِدٌ بَعْدَ آخَرَ، وَيَتَنَاقَصُ عَدْدُنَا يَوْمًا بَعْدَ
يَوْمٍ، حَتَّى هَلَكَ رُكَّابُ السَّفِينَةِ وَمَلَأُوهَا، وَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ غَيْرُ «كَاشِفِ» رُبَّانِ السَّفِينَةِ،
فَسَهَرْنَا لِيَلْتَنَا نَتَرَقَّبُ مَصْرَعَ أَحَدِنَا فِي صَبَاحِ غَدٍ كَمَا صُرِعَ أَصْحَابُنَا مِنْ قَبْلِنَا، وَنَنْتَظِرُ
حُضُورَ الْعَمَلَقَيْنِ لِيُفَرِّقَانَا إِلَى الْأَبْدِ.



(٥) وداع الرُّبَّانِ

وَلَمَّا دَنَا الْمَوْعِدُ نَظَرَ إِلَيَّ «كَاشِفٌ» مَحْزُونًا، وَقَالَ: «لَقَدْ فَقدْنَا كُلَّ أَمَلٍ فِي النِّجَاةِ وَحَسْرَتَاهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَيَّامِنَا فِي الْحَيَاةِ غَيْرُ يَوْمَيْنِ اثْنَيْنِ. وَلَيْسَ لِي أُمْنِيَّةٌ إِلَّا أَنْ يُقَدَّمَ يَوْمٌ مَصْرَعِي عَلَى مَصْرَعِ سَيِّدِي الْأَمِيرِ؛ فَمَا أُطِيقُ أَنْ أَرَى مَوْلَايَ الْأَمِيرَ يُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ وَأَنَا عَاجِزٌ عَنْ نُصْرَتِهِ.»

فَقُلْتُ لـ«كَاشِفٍ»: «مَا أَتَعَسَ حَظُّكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ! لَقَدْ بَدَلْتُ جُهْدِي فِي إِقْنَاعِكَ بِالْعُدُولِ عَنْ مُصَاحَبَتِي فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ. وَلَكِنَّ سَوْءَ حَظِّكَ أَبِي إِلَّا أَنْ تَلِحَّ فِي مُصَاحَبَتِي. وَلَوْلَا إِلْحَافُكَ لَنَجَّوْتُ مِنْ هَذَا الْمَصْرَعِ الْمَفْرَعِ!»

وَمَا إِنْ أَتَمَمْتُ كَلَامِي حَتَّى أَقْبَلَ الْعَمَلِقَانَ، وَأَمْرَانِي أَنْ أَتَّبِعَهُمَا. فَلَمْ أَجْزَعْ لِذَلِكَ، وَلَمْ أَنْتَهَيْبْ هَذَا الْمَصِيرَ؛ فَقَدْ كُنْتُ أَتَرَقَّبُهُ وَأَتَأَهَّبُ لَهُ، فَالْتَفَتُّ إِلَى الرُّبَّانِ أَوْدَعُهُ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ الْأَبَدِيَّ، فَاشْتَدَّ جَزَعُهُ عَلَيَّ، وَتَمَنَّى لَوْ قَدَّمَ قَيْلِي قُرْبَانًا لِلتُّعْبَانِ.



(٦) أَمِيرَةُ الْهَمَجِ

ثُمَّ صَحِبَنِي الْعَمَلِقَانِ إِلَى حَيْمَةٍ فَسِيحَةٍ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّي مُلَاقٍ فِيهَا مَعْبُودَهُمُ الْأَفْعَوَانَ، وَلَكِنْ حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسْبَانِ، فَقَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً مِنَ الْهَمَجِ تَقْبِلُ عَلَيَّ بِاسْمَةٍ، وَتَقُولُ لِي مُطْمَئِنَّةً: «لَا تَخَفْ أَيُّهَا الْفَتَى، وَلَا تَحْزَنْ، فَلَنْ يُصِيبَكَ مَا أَصَابَ أَصْحَابِكَ. لَقَدْ كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّ مَوْلَاتِي الْأَمِيرَةَ «هُسْنَارًا» رَضِيَتْ عَنْكَ، وَادَّخَرَتْ لَكَ حَظًّا سَعِيدًا؛ فَهَنِيئًا لَكَ مَا ظَفَرْتَ بِهِ. وَلَنْ أَفْضِي إِلَيْكَ بِأَكْثَرَ مِمَّا قُلْتُ، فَإِنَّهَا سَتَفَاجِئُكَ بِمَا ادَّخَرْتَهُ لَكَ مِنْ سَعَادَةٍ. وَلَا تَنْسَ أَنَّي مُسْتَشَارَةُ الْأَمِيرَةِ وَجَارِيَتُهَا الْمُخْتَارَةُ. وَقَدْ أَدْنَتْ لِي مُتَفَضِّلَةً فِي أَنْ أُتِيحَ لَكَ شَرَفَ الْمُتُولِّبِ بَيْنَ يَدَيْهَا، فَطَبَّ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا؛ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهَا بَعْدَ لَحَظَاتٍ.»

وَأَنْصَرَفَ الْخَادِمَانِ، وَأَمْسَكَتْ جَارِيَةَ «هُسْنَارًا» بِيَدَيَّ، وَقَادَتْنِي إِلَى مَخْدَعِ الْأَمِيرَةِ، فَرَأَيْتُهَا تَجْلِسُ وَحَدَّهَا عَلَى إِحْدَى الْأَرَائِكِ الْمَغْطَاةِ بِجُلُودِ النُّمُورَةِ وَالْأَسْوَدِ وَالْفُهُودِ. وَرَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا زَيْتُونِي اللَّوْنِ، تَبْرُقُ فِيهِ عَيْنَانِ ضَيِّقَتَانِ، يَتَخَلَّلُهُمَا أَنْفٌ كَبِيرٌ أَفْطَسٌ، رُكَّبٌ عَلَى شَفَتَيْنِ غَلِيظَتَيْنِ، تَنْطَبِقَانِ عَلَى فَمٍ وَاسِعٍ، وَتَنْفَرِجَانِ عَنْ أَسْنَانٍ كَبِيرَةٍ الْحَجْمِ، عُنْبَرِيَّةِ

اللَّوْنِ. وَيَعْلُو رَأْسَهَا شَعْرٌ قَصِيرٌ جَعْدٌ، فِي مِثْلِ لَوْنِ الْأَبْنُوسِ أَوْ هُوَ أَشَدُّ سَوَادًا مِنْهُ، وَفَوْقَهُ قَلَنْسَوَةٌ صَفْرَاءُ مُطَّرَزَةٌ بِخَيْطٍ أَحْمَرَ. وَفِي جِيدِهَا (رَقَبَتِهَا) عَقْدٌ مِنَ الْخَرَزِ كَبِيرُ الْحَجْمِ، يَزِينُهُ رِيشٌ مُخْتَلِفُ الْأَلْوَانِ، بَعْضُهُ أَرْقُ، وَبَعْضُهُ أَصْفَرُ. وَقَدْ ارْتَدَّتْ نَوْبًا ضَافِيًا مِنْ فِرَاءِ النُّمُورَةِ، يُعْطِي جِسْمَهَا مِنْ كِتْفَيْهَا إِلَى قَدَمَيْهَا.

وَكَانَ مَنْظَرُ «هُسْنَارَا» يُدَكِّرُنِي - كَلَّمَا تَمَثَّلْتُهَا - بِصُورَةِ الشَّيْطَانِ كَمَا اتَّخَيْلُهُ، وَرَبِّمَا أَشْبَهَتِ الْقُرُودَ فِي سِمَاجَةِ هَيْئَتِهَا، وَإِنْ خَالَفَتْهَا فِي خِفَتِهَا، وَرَشَاقَةِ حَرَكَتِهَا. وَمَا إِنْ رَأَيْتَنِي حَتَّى ابْتَدَرْتَنِي قَائِلَةً: «لَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الْفَتَى. طَبَّ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا؛ فَلَنْ تَلْقَى عِنْدِي إِلَّا خَيْرًا. تَعَالَ فَاجْلِسْ إِلَى جَانِبِي، لِأَسْمِعَكَ مَا أَعَدَدْتُه لَكَ مِنْ بُشْرِيَّاتٍ. لَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَيْكَ السَّعَادَةَ، فَيَسَّرْتُ لَكَ سَبِيلَ النِّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَالْخَلَاصِ مِمَّا لَقِيَهُ أَعْوَانُكَ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ.»

ثُمَّ صَمَمْتُ «هُسْنَارَا» قَلِيلًا، وَاسْتَأْنَفْتُ قَائِلَةً: «حَسْبُكَ سَعَادَةٌ أَنْنِي أُعْجِبْتُ بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ شَجَاعَتِكَ، وَرِبَاطَةِ جَأَشِكَ (تَبَّاتِ قَلْبِكَ)، وَاسْتِهَانَتِكَ بِالْمَوْتِ، فَعَزَمْتُ عَلَى مَكَافَأَتِكَ عَلَى مَا تَمَيَّزْتَ بِهِ مِنْ خِلَالِ نَبِيلِيَّةِ، وَشَمَائِلِ عَالِيَةِ، وَضَاعَفْتُ لَكَ الْجَزَاءَ، وَأَجَزَلْتُ الْعَطَاءَ، فَلَمْ أَقْتَصِرْ عَلَى إِنْقَاذِكَ مِنَ الْمَوْتِ، بَلْ اخْتَرْتُكَ زَوْجًا لَوْلِيَّةِ الْعَهْدِ «هُسْنَارَا» أَمِيرَةِ الْبَحْرِ. أَعْرِفْتُ أَيُّ مَفْجَاجَةٍ سَارَّةٍ أَعَدَدْتُهَا لَكَ، أَيُّهَا الْمُحْظُوظُ السَّعِيدُ؟ سَتَصْبِحُ سُلْطَانُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي. أَرَأَيْتَ كَيْفَ أَثَرْتُكَ (فَضَّلْتُكَ) عَلَى صَفْوَةِ خَاصَّتِي، وَسِرَاةِ مَمْلَكَتِي؟»

(٧) مَادِبَةُ الْهَرَّةِ

أَيُّ نَبَأٍ هَائِلٍ سَكَّتْ أُذُنِي بِهِ؟ بَلْ أَيُّ شَقَاءٍ أَعَدَّهُ لِي؟ إِنْ الْمَوْتَ أَهَوُنَ عَلَيَّ مِنْ هَذِهِ الْخَاتِمَةِ الْمُرْعَعَةِ. إِنْ بَدَنِي لِيَقْشَعِرُ كُلَّمَا طَافَتْ بِرَأْسِي ذِكْرِيَّاتُ ذَلِكَ الصَّبَاحِ الْمَشْتُومِ. وَسُرْعَانَ مَا تَمَثَّلْتُ تِلْكَ الطَّرْفَةَ الَّتِي قَصَّهَا عَلَيْنَا مُعَلِّمُنَا، وَنَحْنُ طِفْلَانِ.

فَسَأَلْتُهُ أُحْتَهُ: «أَيُّ طَرْفَةٍ تَعْنِي؟ فَمَا أَكْثَرَ مَا أَمْتَعْنَا بِهِ مُعَلِّمُنَا مِنْ طَرَائِفِ وَمُلْحٍ!» فَقَالَ: «أَلَا تَذْكُرِينَ قِصَّةَ الْهَرَّةِ (الْقِطَّةِ) الَّتِي كَانَ سَيِّدُهَا يُكْرِمُهَا، وَيُوَالِي بِرَّهُ بِهَا، وَعَطَفَهُ عَلَيْهَا، بِمَا يُقَدِّمُهُ لَهَا مِنْ دَجَاجٍ وَبَطِّ وَحَمَامٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ لَذِيذِ الطَّعَامِ، فَلَمْ تَجِدْ وَسِيلَةً لِشُكْرِهِ عَلَى مَا عَمَّرَهَا بِهِ مِنْ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ تُكَافِئَهُ بِفَارَةِ اصْطَادَتِهَا، لِئَنْعَمَ

بِضِيَاةِ الْهَرَّةِ كَمَا نَعَمْتَ بِضِيَاةِ تَيْهِ. مَا أَشْبَهَ مَا صَنَعْتَهُ الْهَرَّةُ بِمَا صَنَعْتَ «هُسْنَارًا»!
كِلْتَاهُمَا لَا تَعْرِفُ أَنَّ لَحْمَ الْفِرَانِ لَا يَصْلُحُ طَعَامًا لِلْإِنْسَانِ!

(٨) «هُسْنَارًا»

وَكَانَ حَوْفِي مِنْ غَضَبِ هَذِهِ الْحَمَاءِ يَحُولُ دُونَ مُكَاشَفَتِهَا بِمَا مَلَأَ نَفْسِي مِنْ نُفُورٍ
وَاحْتِقَارٍ، وَمَا أَفَعَمَ قَلْبِي مِنْ كَرَاهِيَةِ وَأَشْمِئْزَانٍ، فَأَثَرْتُ الصَّمْتَ جَوَابًا.

فَقَالَتْ «هُسْنَارًا»: «مَا بَالُكَ صَامِتًا لَا تَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؟ لَا رَيْبَ أَنَّ مَا فَاجَأْتُكَ بِهِ
مِنْ سَعَادَةٍ لَا تَخْطُرُ بِالْبَالِ، قَدْ أَذْهَلَكَ وَعَقَدَ لِسَانَكَ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ. الْحَقُّ مَعَكَ، فَمَا كَانَ
يَدُورُ بِحَلْدِكَ أَنْ يَقَعَ اخْتِيَارُ بِنْتِ سُلْطَانِ الْجَزِيرَةِ عَلَى أَسِيرٍ مِثْلِكَ، فَتُكْتَبَ لَهُ السَّلَامَةُ مِنْ
مَصْرَعٍ وَخِيمٍ، وَيَتَبَدَّلَ شَقَاؤُهُ بِحَظٍّ عَظِيمٍ. إِنَّ صَمْتَكَ دَلِيلُ إِخْلَاصِكَ وَاعْتِرَافِكَ بِمَا أَسَدَيْتُ
إِلَيْكَ مِنْ جَمِيلٍ.»

وَلَمَّا أَنْتَمَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ قَدَّمْتُ لِي إِحْدَى يَدَيْهَا لِأُقْبِلَهَا، فَاقْبَلْتُنِي عَلَى مَضَضٍ. وَكَانَ
اِقْتِنَاعُهَا بِجَمَالِهَا، وَثَقَّتْهَا بِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَاهَا سَيُفَضِّلُهَا عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِ قَاطِبَةً، أَشْبَهَ
بِاقْتِنَاعِ تِلْكَ الْهَرَّةِ بِأَنَّ لَحْمَ الْفِرَانِ أَشْهَى غِذَاءٍ وَالذُّ طَعَامٍ.

وَقَدْ حَيَّلَ لَهَا غُرُورُهَا أَنَّ مَا رَأَتْهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْحَيْرَةِ وَالسُّخْطِ وَالْأَشْمِئْزَانِ،
دَلِيلٌ نَاطِقٌ عَلَى فَرْطِ إِعْجَابِي بِحُسْنِهَا، وَأَفْتِنَانِي بِجَمَالِهَا. وَسُرْعَانَ مَا أَقْبَلْتُ جَارِيَتَانِ،
وَفَرَشْتَا عَلَى الْأَرْضِ نَفَائِسَ مِنْ فِرَاءِ النُّمُورَةِ وَالسَّبَاعِ وَالْفُهُودِ. ثُمَّ جَاءَتْ جَوَارٍ ثَلَاثُ
بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا صَحَافٌ مَمْلُوءَةٌ بِشَرَايِحِ اللَّحْمِ الْمَغْمُورِ فِي الْعَسَلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ غَرِيبٍ مَا
الْفُوهُ مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْعِمَةِ.

ثُمَّ أَشَارَتِ الْإِمِيرَةُ إِلَيَّ أَنْ أَجْلِسَ إِلَى جَانِبِهَا عَلَى فَرْوَةٍ نَمِرٍ لِأَشْرِكَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَذَعَنْتُ
لِأَمْرِهَا كَارِهَا، وَأَزْدَرَدْتُ لِقِيمَاتِ. وَكَانَتِ الْإِمِيرَةُ تُشَجِّعُنِي عَلَى الْأَسْتِزَادَةِ مِنْ طَعَامِهَا،
وَتَقُولُ لِي بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ: «مَاذَا بِكَ أَيُّهَا الْفَتَى؟ مَا بَالُكَ لَا تَقْبَلُ عَلَى الطَّعَامِ؟ لَا رَيْبَ أَنَّ
مَا فَاجَأْتُكَ بِهِ مِنْ بَشَرِيَّاتٍ قَدْ شَغَلَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَعَجِّلًا تَحْقِيقَ وَعْدِي.
الْحَقُّ مَعَكَ يَا فَتَى، فَخَيْرُ الْبَرِّ عَاجِلُهُ، هَا أَنَا ذِي مُسْرِعَةٍ إِلَى مُقَابَلَةِ أَبِي لِأَرْجُوهُ أَنْ يَسْتَبْقِي
لِي حَيَاتِكَ وَحَيَاةَ صَاحِبِكَ الَّذِي اخْتَارْتَهُ جَارِيَتِي الْوَفِيَّةَ «مَهْرُفِيَا» زَوْجًا لَهَا.»

وَلَمَّا أَتَمَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَذِنَتْ لِي بِالْخُرُوجِ، وَقَالَتْ لِي وَهِيَ تودِّعُنِي: «عُدْ إِلَى حَيْمَتِكَ أَيُّهَا الْفَتَى، وَنَبِّئْ صَاحِبَكَ أَنَّ السَّعَادَةَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَوْاجَهُ بِوَصِيفَتِي الْمُخْتَارَةِ «مَهْرُفِيًا» سَيَتِمُّ مَعَ زَوْاجِكَ بِي. عَجَلْ لِي بِهِ بِهَذِهِ الْبُشْرَى، وَاشْكُرِ الْحِظَّ السَّعِيدَ الَّذِي أَفْرَدَكُمَا مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِكُمَا بِالنَّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَأَتَاخَ لِكَلَيْكُمَا أَنْ تَتَنَعَّمَا بِالسَّعَادَةِ الْكَامِلَةِ. طَيِّبَا نَفْسًا، وَقَرِّأْ عَيْنًا؛ فَإِنِّي مُحَقِّقَةٌ لَكُمَا رَجَاءَكُمَا، وَمُبَلِّغَتُكُمَا أُمْنِيَّتِكُمَا، وَسَتَتَعَشَّيَانِ مَعِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ حِينَ تَكْفُ شُعْلَةُ النَّهَارِ عَنِ إِضَاءَةِ الْجَزِيرَةِ السَّعِيدَةِ. وَلِيَبَارِكْ مَعْبُودُنَا الْأَفْعَوَانُ الْعَظِيمُ فِي حَيَاتِنَا الْمَدِيدَةِ.»

فَتَظَاهَرْتُ بِشُكْرِ «هُسْنَارَا» أَمِيرَةِ الْهَمَجِّ، عَلَى مَا أَسَدَّتْهُ مِنْ فَضْلِ عَمِيمٍ، وَأَنَا أَلْعَنُهَا فِي نَفْسِي، وَأَفْضَلُ الْمَوْتَ عَلَى الزَّوَاكِ بِهَذِهِ الشَّيْطَانَةِ. ثُمَّ نَادَتْ الْأَمِيرَةَ بَعْضَ خَدَمِهَا لِيَذْهَبَ بِي إِلَى حَيْمَتِي.

(٩) مُنَاقَشَةُ حَزِينَتِهِ

وَلَا تَسَلْ عَنْ فَرَحٍ «كَاشِفٍ» حِينَ رَأَيْتَ قَادِمًا عَلَيْهِ بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ تَلَاقِنَا، فَقَدْ عَاوَدَهُ الْأَمَلُ فِي النَّجَاةِ، بَعْدَ أَنْ يَبْسُ مِنَ الْحَيَاةِ، فَقَالَ: «مَا أَسْعَدَهَا مُفَاجَأَةً! وَافْرَحَتَاهَا! هَا أَنْتَ يَا أَمِيرِي الْعَزِيزَ، لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، فَهَلْ أَطْمَعُ فِي نَجَاتِكَ مِنَ الْأَفْعَوَانِ وَعَوْدَتِكَ إِلَى مَمْلَكَتِكَ؟!»

فَقُلْتُ لَهُ مَحْزُونًا: «لَقَدْ كُتِبَتْ لِي السَّلَامَةُ مِنَ الْهَلَاكِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْخَاتِمَةِ الْفَاجِعَةِ الَّتِي انْتَهَتْ بِهَا حَيَاةُ رِفَاقِنَا الْأَعْرَاءِ. وَلَكِنْ ...»

فَقَاطَعَنِي قَائِلًا: «يَا لَهَا مِنْ مُفَاجَأَةٍ سَعِيدَةٍ! وَلَكِنْ خَبَّرَنِي: أَوَاتِقُ أَنْتَ مِمَّا تَقُولُ؟ أَتَرَكَ نَجُوتَ مِنَ الْأَفْعَوَانِ؟ حَبِذَا لَوْ صَدَقْتَ الْأَمَانِيَّ وَصَحَّتِ الْأَحْلَامُ!»

فَأَجَبْتُهُ مُتَجَهِّمَ الْوَجْهِ عَابِسًا: «لَيْتَكَ تُصْغِي إِلَى بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ! قُلْتَ لَكَ: إِنَّنِي نَجُوتُ مِنَ الْأَفْعَوَانِ، وَلَكِنْ تَحْقِيقُ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ سَيُكَلِّفُنِي أَفْدَحَ الْأَثْمَانِ. وَسَتَرَى كَيْفَ يَتَبَدَّلُ سُرُورُكَ حُزْنًا إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ فِقْدَانَ الْحَيَاةِ أَيْسَرُ مِنْ أَدَاءِ هَذَا النَّمَنِ!»

فَقَالَ لِي «كَاشِفٌ» مُتَعَجِّبًا: «شَدَّ مَا غَلَوَتْ يَا سَيِّدِي الْأَمِيرَ وَأَسْرَفْتَ! وَهَلْ فِي الدُّنْيَا أَثْمَنُ مِنَ الْحَيَاةِ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «لَا تَعْجَلْ بِحُكْمِكَ». وَقَصَّصْتُ عَلَيْهِ مَا فَاجَأَنِّي بِهِ الْأَمِيرَةُ مِنْ رَغْبَةٍ فِي الزَّوْاجِ بِي.

فَقَالَ لِي مُوسَى: «لَا رَيْبَ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ. وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ جَمِيلَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَعَزِيزٌ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَمُوتَ فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ، فَجَاهِدْ فِي التَّغْلِبِ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَذْعِنُ لِحُكْمِ الضَّرُورَةِ. وَلَا تَنْسَ أَنَّ الْحَازِمَ هُوَ مَنْ يُوَارِنُ بَيْنَ الْمُصِيبَتَيْنِ، فَيَخْتَارُ أَهْوَنَ الشَّرَّيْنِ!»

فَصَحْتُ بِهِ قَائِلًا: «أَيُّ نَصِيحَةٍ هَذِهِ الَّتِي تَقْدُمُهَا لِي؟ هَلْ يَدُورُ بِخَلْدِكَ أَنَّي أَسْتَطِيعُ اتِّبَاعَهَا وَالْعَمَلَ بِهَا؟ سَنَرَى مَاذَا أَنْتَ صَانِعٌ؟ وَهَلْ سَتَتَّبِعُ الرَّأْيَ الَّذِي تُشِيرُ بِهِ عَلَيَّ، حِينَ تَعْلَمُ أَنَّ «مَهْرَفِيًا» وَصِيفَةَ «هُسْنَارًا» قَدِ اخْتَارَتْكَ زَوْجًا لَهَا، وَجَعَلَتْ ذَلِكَ ثَمَنًا لِخَلَاصِكَ مِنَ الْهَلَاكِ؟ فَمَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ؟ لَقَدْ اخْتَارَتْكَ وَهِيَ لَيْسَتْ أَكْثَرَ جَمَالًا مِنْ مَوْلَاتِهَا. أَتَرَكَ مُسْتَعِدًّا لِانْتِهَازِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ الذَّهَبِيَّةِ النَّادِرَةِ؟»

وَسُرْعَانَ مَا انْتَفَضَ «كَاشِفٌ» مُتَفَرِّعًا، وَامْتَقَعَ لِهَوْلِ مَا يَسْمَعُ، فَابْتَدَرَنِي قَائِلًا: «وَإِذَا حَسَرْتَاهُ! يَا لَهُ مِنْ خَبَرٍ صَاعِقٍ! أَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْلَايَ جَادًّا فِيمَا يَقُولُ؟ إِنَّ لِقَاءَ الْأَفْعُوَانِ أَهْوَنُ عَلَى نَفْسِي مِنْ لِقَاءِ هَذِهِ الْغُولِ! بَلْ إِنِّي لِأَفْضَلُ أَنْ يَكُونَ لِي أَلْفُ نَفْسٍ — يَلْتَمِهُمُا التُّعْبَانُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى — عَلَى أَنْ أُبْتَلَى بِهَذِهِ الْمُصِيبَةِ!»

فَقُلْتُ لَهُ مُدَاعِبًا سَاخِرًا: «مَا أَعْجَبَ أَمْرَكَ! وَمَا أَسْرَعَ مَا نَسِيتَ نَصِيحَتَكَ وَتَنَكَّرْتَ لِرَأْيِكَ! أَلَمْ تَقُلْ لِي: إِنَّ الْحَيَاةَ جَمِيلَةٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ، وَإِنَّ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ، وَإِنَّ الْحَازِمَ الْفَطِنَ هُوَ مَنْ يَعْرِفُ كَيْفَ يَخْتَارُ بَيْنَهُمَا؟ فَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ لَا يُخِيفُكَ، فَكَيْفَ تُرِيدُنِي عَلَى أَنْ أَخَافَهُ؟ أَنْسَيْتَ مَا قَالَهُ الْحَكِيمُ الْعَظِيمُ «بُزْرَجْمَهُرُ» لِمَلِيكِهِ، حِينَ سَأَلَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: «مَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ؟ وَمَا الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ؟ أَتَعْرِفُ بِمَاذَا أَجَابَهُ؟»

فَقَالَ «كَاشِفٌ»: «أَمَّا الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ فَهُوَ الزَّوْاجُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشَّيْطَانَةِ! فَكَيْفَ قَالَ الْحَكِيمُ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «كَانَ نِصْفُ جَوَابِهِ قَرِيبًا مِمَّا سَمِعْتَهُ مِنْكَ؛ فَقَدْ قَالَ لِمَلِيكِهِ: «أَمَّا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ فَهُوَ مَا لَا تَطِيبُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِهِ. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ فَهُوَ مَا يَتَمَنَّى الْمَوْتُ مِنْ أَجْلِهِ!»

فَقَالَ لِي «كَاشِفٌ»: «مَا أَصْدَقَ مَا قَالَ!»

(١٠) الْفِرَارُ مِنَ الْجَزِيرَةِ

وَلَبِثْتُ مَعَ «كَاشِفٍ» نُقَلِّبُ آرَاءَنَا عَلَى كُلِّ وَجْهِ، حَتَّى أَحْكَمْنَا خُطَّةً لِلْفِرَارِ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْمَشْتُومَةِ. وَسَنَحَتْ لَنَا الْفُرْصَةُ لِتَحْقِيقِ مَا أَرَدْنَا، بَعْدَ أَنْ وَثِقَتْ بِنَا الْأَمِيرَةُ وَمُسْتَشَارَتُهَا، وَأَطْلَقَتَنَا مِنَ الْأَسْرِ، وَأَذِنَتْ لَنَا فِي التَّجْوَالِ، وَارْتِيَادِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ كَمَا نَشَاءُ. وَسَاعَفْنَا الْحِطَّ بَعْدَ سَاعَاتٍ، فَوَجَدْنَا زَوْرَقًا صَغِيرًا مِنْ زَوَارِقِ الصَّيَّادِينَ مَرْبُوطًا إِلَى وَتِدٍ بِحَبْلِ مَتِينٍ، فَحَلَلْنَاهُ وَأَنْطَلَقْنَا بِهِ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ مُسْرِعِينَ، وَمَا إِنْ بَعُدْنَا عَنِ الشَّاطِئِ حَتَّى فَطَنَ بَعْضُ الْهَمَجِ إِلَى فِرَارِنَا، فَاذْدَفَعُوا إِلَى الشَّاطِئِ غَاضِبِينَ، وَرَاحُوا يَتَوَعَّدُونَنَا مُزْمَجِرِينَ. وَسَمِعْنَا وَزِيرَ الْهَمَجِ يُبْرِطُ وَيَرْطُنُ، فَلَمْ نُبَالِ بِوَعِيدِهِ، وَلَمْ نَعْبَأْ بِتَهْدِيدِهِ بَعْدَ أَنْ أَوْغَلْنَا فِي الْبَحْرِ، وَأَصْبَحْنَا بِمَنْجَاةٍ مِنْ شَرِّ الْهَمَجِ. وَعِنْدَمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ كَانَتِ الْجَزِيرَةُ قَدْ غَابَتْ عَنَّا نَاطِرِينَ.

فَشَكَرْنَا اللَّهَ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — لِنَجَاتِنَا، وَشَعَرْنَا بِسُرُورٍ عَظِيمٍ. وَشَغَلْنَا فَرَحُنَا بِالْخَلَاصِ مِنَ الْهَمَجِ عَمَّا يُوَاجِهُنَا مِنْ نَفَادِ الزَّادِ وَأَخْطَارِ الْبَحْرِ وَنُورَةِ الْأَمْوَاجِ، وَمَا يَتَهَدَّدُ زَوْرَقُنَا مِنَ الْغَرَقِ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ.

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ كَانَ الْمَوْتُ غَرَقًا أَيْسَرَ عَلَيْنَا، وَأَبْهَجَ لِقَابِنَا، مِنْ إِلْقَائِنَا بَيْنَ فَكِّي النَّعْبَانِ، أَوْ مُصَاهَرَتِنَا لِذَلِكَ السُّلْطَانِ.

الفصل السادس

(١) جَنَّةُ الْبَحْرِ

وَانطَلَقَ بِنَا الزُّورُقُ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ عَلَى غَيْرِ هُدًى، حَتَّى لَاحَتْ لَنَا تَبَاشِيرُ الصُّبْحِ، فَحَلَلْنَا جَزِيرَةً كَثِيرَةً الْأَنْهَارِ، وَارْفَةَ الْأَشْجَارِ، دَانِيَةَ النَّمَارِ، تَكَادُ غُصُونُهَا تَمَسُّ الْأَرْضَ لَوْفَرَةَ مَا تَحْمَلُ مِنْ نَاضِحِ الْفَاكِهَةِ. وَكَانَتْ تُخَيِّلُ لِمَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا جَنَّةٌ مِنْ جَنَّاتِ الْأَرْضِ. وَكَانَ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ قَدْ جَهَدَانَا وَبَرَّحَا بِنَا، فَأَكَلْنَا مِنْ لَذَائِدِ فَاكِهَتِهَا، وَارْتَوَيْنَا مِنْ عَذْبِ مَائِهَا، وَحَمَدْنَا اللَّهَ الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنْ جُوعٍ، وَأَمَّنَّنَا مِنْ خَوْفٍ.

وَجَلَسْنَا نَعْرِضُ مَا مَرَّ بِنَا مِنْ أَحْدَاثٍ وَأَهْوَالٍ، فَتَضَحَّكَ مُتَفَكِّهِينَ، بَعْدَ أَنْ نَجَوْنَا مِنَ الْخَطَرِ وَضَمِنَّا السَّلَامَةَ.

وَعَجِبْنَا كَيْفَ حَلَّتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ النَّاصِرَةَ مِنَ النَّاسِ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: «لَأَمْرٍ مَا أَقْفَرْتَ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ، فَلَمْ يَعْمُرْهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَا أَظُنُّنَا أَوْلَ مَنْ حَلَّ بِأَرْضِهَا، وَأَعْجَبَ بِاعْتِدَالِ جَوْهَا وَلَذِيذِ فَاكِهَتِهَا.»

فَقَالَ: «الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ. وَلَوْلَا ذَلِكَ، لَمَا حَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْفَرَتْ مِنْ سَاكِنِيهَا.» وَكَأَنَّمَا أَجْرَى الْقَدْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِي عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ مِنْهُ بِمَا يَخْبُوهُ لَهُ مِنْ أَحْدَاثٍ. وَقَضَيْنَا نَهَارَنَا وَلَيْلَانَا فِي مَرَحٍ وَابْتِهَاجٍ. وَجَلَسْنَا نَسْمُرُ فِي ضَوْءِ الْبَدْرِ، ثُمَّ نَمْنَا عَلَى الْحَشَائِشِ الْخَضِرِ الْمَحْلَاةِ بِالْأَزْهَارِ نَاتِ الْأَرِيحِ الْفَوَاحِ. وَعَلَبَّنِي التَّعَبُ، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ إِلَّا فِي الضُّحَى. وَلَمْ أَجِدْ صَاحِبِي مَعِي، فَنَادَيْتُهُ مَرَّاتٍ، فَلَمْ أَظْفَرْ بِغَيْرِ رَجْعِ الصَّدَى. وَبَحَثْتُ

عَنْهُ أُسْبُوعَيْنِ فِي أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ، فَلَمْ أَعْتُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّ كَارِثَةً حَلَّتْ بِهِ، وَيَسْتُ مِنْ لِقَائِهِ.

وَكُنْتُ أَنْمَتِي لَوْ أُسْتَطِيعُ فِدَاءَهُ مِمَّا لَحِقَ بِهِ مِنَ الْمَكَارِهِ، لَوْ كَانَ يُجِدِي الْفِدَاءَ. وَاسْفًا عَلَيْهِ! لَقَدْ فَدَنْتُ فِيهِ صَدِيقًا وَفِيًّا وَأَمِينًا مُخْلِصًا، طَالَمَا شَارَكَنِي هُمُومِي وَالْأَمِي، وَأَعَانَنِي فِي حَلِّي وَتَرْحَالِي، وَحَمَلَ عَنِّي مَا أَنْوَأُ بِهِ مِنْ أَثْقَالِ الْحَيَاةِ، فَأَيُّ كَارِثَةٍ فَرَقَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، بَعْدَ أَنْ نَجَوْنَا مِنْ كُلِّ مَا تَعَرَّضْنَا لَهُ مِنْ فَوَاحِشِ الْكَوَارِثِ؟

وَلَا حَتَّ لِعَيْنَيَّ فِي - الْيَوْمِ الْخَامِسَ عَشَرَ - غَابَةٌ كَثِيفَةٌ، فَيَمَّمْتُهَا، وَرُحْتُ أَجُوسَ خِلَالَ أَشْجَارِهَا، فَاعْتَرَضَنِي قَصْرٌ لَمْ أَرْ لَهُ شَبِيهًا بَيْنَ قُصُورِ الْمُلُوكِ، تُحِيطُ بِهِ خَنَازِقُ عَمِيقَةٌ وَإِسْعَةٌ مَمْلُوءَةٌ مَاءً. وَرَأَيْتُ عَلَى أَحَدِهَا مَعْبَرًا مُتَحَرِّكًا أَسْلَمَنِي إِلَى مِيدَانٍ فَسِيحٍ مُبَلِّطٍ بِالرُّخَامِ الْأَبْيَضِ، يُوَاجِهُ بَابَ الْقَصْرِ. وَفِي وَسَطِهِ فَتَاةٌ بَهِيَّةُ الطَّلَعَةِ نَائِمَةٌ عَلَى سَرِيرٍ فَاجِرٍ، تَرْتَدِي نَوْبًا حَرِيرِيًّا مُطَّرَّرًا بِنَفِيسِ اللَّالِي، وَعَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ مِنَ الذَّهَبِ مُرْصَعٌ بِالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُودِ وَالْمَاسِ، وَفِي رَقَبَتِهَا عِقْدٌ مِنَ الْيَاقُوتِ النَّادِرِ، وَفِي وَسَطِهِ دُرَّةٌ كَبِيرَةٌ لَا تُقَوِّمُ بِمَالٍ. وَلَوْلَا تَانِ يَشَعُ مِنْهُمَا نُورٌ بَاهِرٌ.

وَقَدْ خَيَّلَ إِلَيَّ - حِينَ رَأَيْتُهَا - أَنَّهَا تَتَأَمَّلُنِي وَتُنْعِمُ نَظَرَهَا فِيَّ. وَلَمْ يَدُرْ بِخَلْدِي أَنَّهَا تِمْتَالُ صَامِتٌ لَا حَرَكَتَ بِهِ، وَلَا حَيَاةَ فِيهِ، كَيْفَ! وَجَمَالُهَا مُشْرِقٌ، وَحُسْنُهَا زَاهِرٌ، وَخَدَاهَا مُورِدَانِ يُوكِدَانِ لِمَنْ يَرَاهُمَا أَنَّ دَمَ الْحَيَاةِ يَجْرِي فِي عُرُوقِ الْفَتَاةِ مُتَدَفِّقًا. وَكَانَ بَرِيقُ عَيْنَيْهَا يُخَيِّلُ لِمَنْ يَرَاهُ كَأَنَّهَا يُحَرِّكُهَا الْهُدْبُ، فَتَرْمَشُ بِهِمَا، فَلَا يَتَمَالِكُ أَنْ يَبْدَأَهَا بِالنَّحِيَّةِ.

يَا لِلْعَجَبِ! أَهَذَا تِمْتَالٌ فَاقِدُ الْحَيَاةِ؟ تَرَى أَيُّ مَثَالٍ أَبْدَعَهُ؟ أَمَّا السَّرِيرُ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ الْفَتَاةُ فَلَهُ دَرَجٌ، وَعَلَى الدَّرَجِ خَادِمَانِ: أَبْيَضٌ وَأَسْوَدٌ، وَبِيدَ أَحَدِهِمَا رُحْمٌ مِنَ الْفُولَانِ، وَبِيدَ الْآخَرِ سَيْفٌ مَاضٍ يَكَادُ سَنَاةً يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ، وَبَيْنَ يَدَيْهِمَا لَوْحٌ مَعْلُقٌ فِيهِ مِفْتَاحُ نَهْبِي.

وَدَنَوْتُ مِنَ اللُّوْحِ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ نَقْشًا بَدِيعًا مَكْنُوبًا فِي وَسَطِهِ: «مَنْ قَدِمَ عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُ دُخُولَ هَذِهِ الْغَابَةِ، وَكَتَبَ لَهُ الْوُصُولَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، وَأَرَادَ أَنْ يَظْفَرَ بِالْقَصْرِ السَّعِيدِ، فَلْيَأْخُذْ هَذَا الْمِفْتَاحَ دُونَ أَنْ يَمَسَّنِي أَوْ يَمَسَّ مِنْ حَالِيئِي وَلَا لِيئِي شَيْئًا،

فَإِذَا وَسَّوسَ لَهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُخَالِفَ هَذَا النُّصْحَ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتَّهْلُكَةِ، وَخَسِرَ سَعَادَتَهُ وَحَيَاتَهُ جَمِيعًا.»

(٢) قَنَاةُ الْأَمِيرِ

وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنِّي تَعَوَّدْتُ — مُنْذُ نَشَأْتِي — الطَّاعَةَ، وَرُضْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَنَاةِ، فَاتَّبَعْتُ النُّصْحَ الَّذِي قَرَأْتُهُ، وَصَعِدْتُ الدَّرَجَ، وَأَخَذْتُ مِفْتَاحَ الْقَصْرِ مِنْ عُنُقِ الْفَتَاةِ، دُونَ أَنْ يُسَاوِرَنِي الطَّمَعُ فِي أَخْذِ مَا عَدَاهُ. ثُمَّ تَقَدَّمْتُ إِلَى بَابِ الْقَصْرِ، وَهُوَ مَصْنُوعٌ مِنْ خَشَبِ السَّرْوِ، وَبِهِ نَقْشٌ بَارِزٌ يُمَثِّلُ طَائِفَةً مُخْتَلِفَةً مِنَ الطَّيْرِ، وَعَلَيْهِ قُفْلٌ كَبِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ عَلَى هَيْئَةِ أَسَدٍ، فَمَا إِنْ وَضَعْتُ الْمِفْتَاحَ فِي الْقُفْلِ حَتَّى انْفَتَحَ قَبْلَ أَنْ أُدِيرَ فِيهِ الْمِفْتَاحَ، فَتَعَجَّبْتُ مِمَّا رَأَيْتُ. وَوَلَّحْتُ مَنِّي التِّفَاتَةَ، فَأَبْصَرْتُ سُلَّمًا مِنَ الرُّخَامِ الْأَسْوَدِ، فَصَعِدْتُهُ وَدَخَلْتُ بِهِوَ كَبِيرًا مُزِينًا بِالثَّرَيَّاتِ الْبُلُورِيَّةِ وَالطَّنَافِسِ الْحَرِيرِيَّةِ الْمُذَهَّبَةِ، وَبِهِ أَرَاكُ مِنْ الدِّيْبَاجِ الْمُذَهَّبِ، فَأَسْلَمَنِي إِلَى حُجْرَةٍ أُخْرَى ثَمِينَةَ الْأَثَاثِ. وَنَظَرْتُ فَإِذَا سَيِّدَةٌ فِي مُقْتَبِلِ شَبَابِهَا، نَائِمَةٌ عَلَى إِحْدَى الْأَرَاكِ، مُسْنَدَةٌ رَأْسُهَا إِلَى وَسَادَةٍ حَرِيرِيَّةٍ، وَقَدْ ارْتَدَّتْ أَنْفَسُ الثِّيَابِ، وَإِلَى جَانِبِهَا نَصْدٌ مِنَ الْمَرْمَرِ.

وَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا، فَرَأَيْتُهَا مُغْمَصَةَ الْعَيْنَيْنِ. وَاسْتَمَعْتُ إِلَى أَنْفَاسِهَا الْخَافِتَةِ، فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّهَا لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَعَجِبْتُ لِوُجُودِهَا وَحَدَاها فِي هَذَا الْقَصْرِ الْمُنْفَرِدِ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفَرَةِ. وَخَطَرَ لِي أَنْ أُوقِظَهَا مِنْ نَوْمِهَا، وَلَكِنِّي أَحْجَمْتُ حَتَّى لَا أُنْغِصَ عَلَيْهَا صَفْوَ رَاحَتِهَا، وَأُكَدِّرَ عَلَيْهَا هَنَاءَ رَقَدَتِهَا، فَغَادَرْتُ الْقَصْرَ، مُعْتَمِرًا عَوْدَتِي إِلَيْهِ بَعْدَ سَاعَاتٍ.

(٣) عَجَائِبُ الْجَزِيرَةِ

ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ نَجْوَالِي فِي الْجَزِيرَةِ، فَرَأَيْتُ عَجَائِبَ مِنْ طَيْرِهَا وَحَيَوَانِهَا وَحَشَرَاتِهَا لَمْ أَرْ لَهَا مَثِيلًا فِي غَيْرِهَا، فَقَدْ شَهِدْتُ مِنْ غَرَائِبِهَا مَخْلُوقَاتٍ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَسْمِيهَا، فَهِيَ تَبْدُو فِي هَيْئَةِ النَّمْلِ وَحَجْمِ النَّمْرَةِ. وَقَدْ حَسِبْتُهَا — أَوْلَّ مَا رَأَيْتُهَا — مُفْتَرَسَةً، فَتَاهَبْتُ لِصِرَاعِهَا. وَلَكِنِّهَا أَسْرَعَتْ بِالْفِرَارِ حِينَ رَأَيْتُنِي. وَلَقِيتُ أَنْوَاعًا أُخْرَى مِنْ مُخْتَلِفِ الْحَيَوَانِ، تَبَعْتُ هَيْئَتُهَا عَلَى

الرُّعْبِ وَالْفَرْعِ. وَلِكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا نَفَرْتُ مِنِّي، وَحَادَتْ عَن طَرِيقِي، دُونَ أَنْ تَمَسَّنِي بِأَذَى. وَعُدْتُ إِلَى الْقَصْرِ بَعْدَ سَاعَةٍ، فَرَأَيْتُ الْفَتَاةَ لَا تَزَالُ غَارِقَةً فِي نَوْمِهَا.

(٤) انْتِبَاهُ الْأَمِيرَةِ

وَأَشْنَدْتُ رَعْبَتِي فِي مُحَادَثَتَيْهَا، لِأَتَعَرَّفَ طَرَفًا مِنْ قِصَّتَيْهَا؛ فَأَثَرْتُ شَيْئًا مِنَ الضَّجِيحِ، وَسَعَلْتُ مَرَّاتٍ، فَلَمْ تَسْتَنْقِظْ، فَدَنَوْتُ مِنْهَا وَحَرَّكْتُهَا بِيَدِي، فَلَمْ تَشْعُرْ وَلَمْ تَتَحَرَّكْ، فَأَشْنَدْتُ عَجْبِي وَسَاوَرَنِي الشُّكُّ فِي أَمْرِهَا، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «لَعَلَّهَا مَسْحُورَةٌ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيقَازِهَا مِنْ سُبَاتِهَا؟»

وَأَنْتَابَنِي الْيَأْسُ مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ، فَهَمَمْتُ بِالْعَوْدَةِ. وَحَانَتْ مِنِّي التِّفَاةُ فَرَأَيْتُ — عَلَى الْمَائِدَةِ الْمَرْمِيَّةِ — الْكَلِمَاتِ التَّالِيَةَ:

مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الْأَمِينُ. لَقَدْ بَرَكَ اللَّهُ مِنَ الطَّمَعِ، فَظَفَرْتَ بِالْقَصْرِ السَّعِيدِ فَاهْمِسْ فِي أُذُنِ الْفَتَاةِ بِاسْمِكَ وَاسْمِ أَبِيكَ وَجَدِّكَ، تَسْتَنْقِظُ عَلَى الْفُورِ مِنْ نَوْمِهَا الْعَمِيقِ.

فَأَدْعَنْتُ لِمَا أَمَرْتُ. وَمَا إِنْ نَطَقْتُ بِاسْمِي وَاسْمِي أَبِي وَجَدِّي حَتَّى تَنْفَسَتْ الْفَتَاةُ الصُّعْدَاءَ، ثُمَّ فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا وَانْتَبَهَتْ. وَلَمْ تَكُنْ دَهَشْتُهَا لِرُؤْيِي بِأَقْلٍ مِنْ دَهَشْتِي لِرُؤْيَيْهَا، فَابْتَدَرْتَنِي قَائِلَةً: «يَا لَكَ مِنْ مَقْدَامِ شُجَاعِ الْقَلْبِ، كَرِيمِ النَّفْسِ. وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَا تَخَطَّيْتُ الْعَوَائِقَ وَالْمُغْرِبَاتِ الَّتِي أَهْلَكْتَ غَيْرَكَ مِمَّنْ حَاوَلُوا دُخُولَ الْقَصْرِ. وَهِيَ — بِلَا رَيْبٍ — فَوْقَ مَقْدُورِ الْأُنَاسِيِّ! تَرَى مِنْ تَكُونُ؟ أَجِنِّي أَنْتَ أَمْ مَلِكٌ؟»

فَقُلْتُ لَهَا: «كَلَّا يَا سَيِّدَتِي، مَا أَنَا بِجِنِّي وَلَا مَلِكٍ، بَلْ أَنَا إِنْسَانٌ عَادِيٌّ، قَدِمَ عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ مُصَادَفَةً، وَسَاقَتْهُ قَدَمَاهُ — عَن غَيْرِ قَصْدٍ — إِلَى هَذَا الْقَصْرِ الَّذِي تَسْكُنِينَ، وَأَظْفَرَهُ الْحِظُّ السَّعِيدُ بِمِفْتَاحِهِ فِي غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا عَنَاءٍ.»

فَقَالَتِ الْفَتَاةُ: «لَنْ يَبِمَ هَذَا إِلَّا لِأَمِيرٍ فَاضِلٍ كَرِيمٍ لَا يُخَامِرُ نَفْسَهُ الطَّمَعُ، وَلَا تَفْتِنُهُ الْمُغْرِبَاتُ، فَمَنْ تَكُونُ؟»

فَرَوَيْتُ لَهَا مَا لَقِيتُ فِي رِحْلَتِي مِنْ غَرَائِبِ الْأَحْدَاثِ، وَكَاشَفْتُهَا بِمَا شَعَرْتُ بِهِ مِنْ حُزْنٍ عَمِيقٍ لِفَقْدَانِ صَدِيقِي «كَاشِفٍ» بَعْدَ أَنْ نَجَا كِلَانَا مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ مُهْلِكَاتٍ.

(٥) حَدِيثُ الْبَبْغَاءِ

وَهُنَا سَمِعْتُ صَوْتًا يَهْتَفُ قَائِلًا: «لَا تَأْسَفْ عَلَى صَاحِبِكَ وَلَا تَحْزَنْ، فَقَدْ أَهْلَكَهُ الطَّمَعُ. وَلَوْ خَلَصْتَ نَفْسَهُ مِنَ الْجَشَعِ، كَمَا خَلَصْتَ مِنَ الْخَوْفِ؛ لَكَانَ جَدِيرًا مِثْلَكَ بِدُخُولِ هَذَا الْقَصْرِ السَّعِيدِ.»

وَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ بَبْغَاءَ فَصِيحَةَ اللِّسَانِ تَنْطِقُ بِهَذَا الْكَلَامِ، فَسَأَلْتُهَا مُتَعَجِّبًا: «حَبْرِي نِي — يَا اللَّهِ — كَيْفَ أَهْلَكَ الطَّمَعُ صَدِيقِي «كَاشِفًا»؟»

فَقَالَتِ الْبَبْغَاءُ: «كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الطَّمَعَ وَمُخَالَفَةَ النُّصْحِ هُمَا اللَّذَانِ انْتَهَيَا بِصَاحِبِكَ إِلَى الْهَلَاكِ؛ فَقَدْ رَأَى تِمْتَالَ الْفَتَاةَ كَمَا رَأَيْتَهُ، وَأَعْرَاهُ الطَّمَعُ بِانْتِزَاعِ الْعَقْدِ اللُّؤْلِيِّ مِنْ جِيدِ الْفَتَاةِ، وَمَا كَادَ يَلْمُسُهُ حَتَّى ضَرَبَهُ أَحَدُ الْحَارِسِينَ بِسَيْفِهِ، وَطَعَنَهُ الْآخَرَ بِرُمْحِهِ، فُقُتِلَ مِنْ قَوْرِهِ، ثُمَّ جَاءَتْ حَشْرَاتُ الْجَزِيرَةِ وَحَيَوَانُهَا فَأَكَلَتْهُ، وَلَمْ تَبْقِ مِنْهُ شَيْئًا، كَمَا أَكَلَتْ غَيْرَهُ مِنْ رُؤَادِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الطَّامِعِينَ. وَلَوْ طَمِعْتَ مِثْلَهُ وَفَعَلْتَ فِعْلَهُ لَلْقَيْتَ مِثْلَ مَصْرَعِهِ، فَقَدْ غُنِيَ مُبْدِعُ هَذَا التَّمْتَالِ بِاخْتِبَارِ مَنْ يَفِدُ عَلَى هَذَا الْقَصْرِ، فَتَنَزَّرَ اللَّالِيَّ وَالْأَحْجَارَ الْكَرِيمَةَ حَوْلَ التَّمْتَالِ لِيَتَعَرَّفَ الطَّبَاعَ. بَعْدَ أَنْ نَقَشَ عَلَى اللُّوْحِ الَّذِي رَأَيْتَهُ إِلَى جَانِبِ التَّمْتَالِ تَحْذِيرَهُ لِلطَّامِعِينَ وَإِنْذَارَهُ لِلْمُغَامِرِينَ، فَإِذَا شَغَلَتِ النَّفَائِسُ أَحَدَ الرُّؤَادِ عَنْ مِفْتَاحِ الْقَصْرِ كَانَ غَيْرَ جَدِيرٍ بِالسَّعَادَةِ، فَاحْمَدَ اللَّهُ عَلَى خُلُوصِ نَفْسِكَ مِنَ الطَّمَعِ فِيمَا لَيْسَ لَكَ، وَصَفَاءِ قَلْبِكَ مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ صَاحِبُكَ مِنَ الْهَلَاكِ، فَقَدْ وَسَّوسَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَاسْتَجَابَ لَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «أَمِنْ أَجْلِ هَذَا التَّحْذِيرِ السَّخِيفِ أَتْرُكُ هَذِهِ النَّفَائِسَ؟ وَلِمَنْ أَتْرُكُهَا؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْرِمَنِي إِيَّاهَا؟ وَهَلْ يَقْدِرُ تِمْتَالُ عَاجِزٌ عَنِ الْحَرَكَةِ أَنْ يُعَاقِبَ أَحَدًا؟»

(٦) فِي أَجْوَانِ الْفَضَاءِ

فَلَمَّا انْتَهَتْ الْبَبْغَاءُ مِنْ كَلَامِهَا تَمَلَّكَنِي الْعَجَبُ مِمَّا سَمِعْتُ، وَاشْتَدَّ بِي الْأَسْفُ لِمَصْرَعِ صَاحِبِي «كَاشِفِ» الَّذِي أَوْرَدَهُ الْحِرْصُ مَوْرِدَ الْهَلَاكِ.

وَسَأَلْتُ الْفَتَاةَ أَنْ تَحْدِثَنِي بِقِصَّتِهَا، وَكَيْفَ حَلَّتْ بِهَذَا الْقَصْرِ، فَقَالَتِ الْفَتَاةُ: «لِذَلِكَ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ، إِنَّهَا مُفَاجَأَةٌ لَمْ تَكُنْ لِي فِي الْحِسْبَانِ وَلَمْ تَخْطُرْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِي عَلَى بَالٍ، فَقَدْ

«...»

وَهُنَا شَعَرْتُ أَنَّ يَدًا رَفِيقَةً تَرْفَعُنِي إِلَى السَّمَاءِ، وَتَحْمِلُنِي مُحَلِّقَةً بِي فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ. وَسُرْعَانَ مَا اسْتَحْفَى الْقَصْرَ وَالْفَتَاةَ عَن نَاطِرِي، وَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى رَأَيْتُنِي هَابِطًا إِلَى الْأَرْضِ أَمَامَ بَابِ الْمَدِينَةِ، دُونَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لِي: أَيُّ قُوَّةٍ حَفِيَّةٍ نَقَلْتَنِي مِنَ الْقَصْرِ السَّعِيدِ إِلَى أَرْضِ الْوَطَنِ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ؟
وَرَأَيْتُ جَيْشَ ضَيْفِنَا الْعَزِيزِ مُرَابِطًا حَوْلَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلْتُهُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِمْ، فَلَمْ يُخْفُوا عَنِّي شَيْئًا.»

(٧) مَفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ

وَأَرَادَ الْأَمِيرُ أَنْ يُوَاصِلَ حَدِيثَهُ، لَوْلَا أَنَّ مَفَاجَأَةً جَدِيدَةً عَقَدَتْ لِسَانَهُ عَنِ الْكَلَامِ. يَالْعَجَبِ! هَا هِيَ ذِي فَتَاةِ الْقَصْرِ السَّعِيدِ تَبْدُو مَائِلَةً أَمَامَهُ! فَمَا إِنْ يَرَاهَا الْأَمِيرُ «إِقْبَالَ» حَتَّى يَخْفَ إِلَى لِقَائِهَا فِي لَهْفَةٍ وَشَوْقٍ، وَلَا يَتِمَّاكَ أَنْ تَنْدَّ مِنْهُ صَرْخَةٌ مُتَحَيِّرَةٌ: «رَبَّاهُ! مَرْحَبًا بِكَ يَا «وَادِعَةُ» وَافْرَحْتَاهُ! مَنْ أَيْنَ قَدِمْتَ يَا أُخْتَاهُ؟ وَكَيْفَ كُنْتِ لِكَ النَّجَاةِ؟» فَقَالَ الْأَمِيرُ «فَاضِلٌ»: «مَا أَعْجَبَ مَا أَرَى وَأَسْمَعُ! أَلَا مَا أَسْعَدَنِي بِلِقَاءِ الْأَخْوَيْنِ وَاجْتِمَاعِ الشَّيْتَيْنِ.»
وَأَسْرَعَتْ «رَائِعَةُ» إِلَى ضَيْفِنَا «وَادِعَةَ» تُعَانِقُهَا، وَتُرْحَبُ بِهَا، وَتُهَنِّئُهَا بِسَلَامَتِهَا وَاجْتِمَاعِ شَمْلِهَا بِأَخِيهَا.

(٨) قِصَّةُ الْأَمِيرَةِ

وَاشْتَدَّ الشَّوْقُ إِلَى تَعْرِفِ قِصَّتِهَا، فَاِبْتَدَرَهَا أَخُوها قَائِلًا: «لَقَدْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُكَ يَا «وَادِعَةُ» حَتَّى كَادَ يَدُبُّ الْيَأْسُ إِلَيْنَا مِنْ عَوْدَتِكَ بَعْدَ أَنْ أَعْيَانَا الْبَحْثَ عَنْكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا تَسْأَلِي عَمَّا انْتَابَ أَبَاكَ الْمَلِكَ «عَاصِمًا» مِنَ الْأَلَمِ، فَقَدْ بَرَّحَ بِهِ الْحُرْنُ، وَالْحَاحُ عَلَيْهِ الْأَسَى؛ فَاسْأَلِمَاهُ إِلَى الْمَرَضِ.»
ثُمَّ زَارَنِي فِي نَوْمِي شَيْخٌ مَهِيْبٌ الطَّلَعَةِ، رَائِعِ السَّمْتِ، فَاِبْتَدَرَنِي بِالتَّحِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَنِي أَنْ أُسْرِعَ بِالرَّحِيلِ مَعَ نُحْبَةٍ مِنْ جَيْشِي، لِأَنَّ مَفَاجَأَةً سَعِيدَةً تَنْتَظِرُنِي بَعْدَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا قُمْتُ مِنْ نَوْمِي حَسِبْتُ مَا رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ، ثُمَّ تَكَرَّرَتِ الرُّؤْيَا فِي الْيَوْمَيْنِ التَّالِيَيْنِ، فَلَمَّا قَصَصْتُهَا عَلَى أَبِي أَخْبَرَنِي أَنَّهُ رَأَى مِثْلَ هَذِهِ الرُّؤْيَا فِي ثَلَاثِ اللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ: أَمْسِ

وَأَوَّلَ أَمْسٍ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ، وَسَمِعَ الشَّيْخَ يَأْمُرُهُ أَنْ يُعِدَّ السَّفَائِنَ لِتَرْحِيلِ وَلَدِهِ، فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُسْتَطَاعٍ، وَيُبَشِّرُهُ بِمُفَاجَأَةِ سَعِيدَةَ تَنْتَظِرُهُمَا فِي نَهَايَةِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ.

فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي، وَارْتَاحَ بَالِي لِمَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، وَأَبْحَرْتُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ مَعَ نَخْبَةٍ مِنْ أَصْفِيَائِي، وَانْتَهتِ الرَّحْلَةُ الْعَاصِفَةُ بِهَذِهِ الْخَاتِمَةِ السَّعِيدَةِ، فَخَرَّيْنِي يَا أَخْتَاهُ، مَاذَا حَجَبَكَ عَنَّا طُولَ هَذَا الْوَقْتِ؟»

فَقَالَتْ: «كُنْتُ نَائِمَةً فِي مَخْدَعِي بِحَدِيقَةِ قَصْرِ الرَّبِيعِ الْمُطَلَّةِ عَلَى الْبَحْرِ، وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ قَمْرَاءً، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ مِنْ نَوْمِي إِلَّا فِي أَصِيلِ الْيَوْمِ التَّالِيِ. وَلَا تَسَلْ عَن دَهْشَتِي حِينَ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْغُرَبَاءِ يُحِيطُونَ بِي، وَيَتَلَطَّفُونَ فِي تَسْكِينِ ثَائِرَتِي، وَلَا يَأْلُونَ جُهْدًا فِي جَلْبِ الطَّمَأِينَةِ إِلَى نَفْسِي. ثُمَّ يَقُولُ لِي كَبِيرُهُمْ مُتَوَدِّدًا: «لَا تَخْشَى أَيَّتَهَا الْأَمِيرَةَ، وَلَا تَيْئِسِي، فَلَنْ يِنَالِكَ أَدَى وَلَا سُوءٌ. إِنَّ السَّعَادَةَ لَتَنْتَظِرُكَ، فَقَدْ اخْتَارَكَ مَوْلَانَا «مَرْمُوشٌ» مَلِكُ الْهِنْدِ الْأَعْظَمِ، لِتَكُونِي عَرُوسَهُ، فَلَمَّا صَنَّ عَلَيْهِ أَبُوكَ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ عَرَضَ الْأَمْرَ عَلَى وَزِيرِهِ «أَنْبُوشٍ» فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِاخْتِطَافِكِ. وَلَنْ تَلْقَى عِنْدَ مَلِكِنَا غَيْرَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ.»

فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يُعِيدُونِي إِلَى أَبِي، فَلَمْ يُصْغِ إِلَى رَجَائِي أَحَدٌ، فَأَعْمَلْتُ الْحِيلَةَ لِلتَّخْلُصِ مِنْهُمْ، وَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُلْهِمَنِي وَجَهَ الصَّوَابِ، وَيُنَجِّنِي مِنْ أَسْرِ هَؤُلَاءِ الْغَاصِبِينَ. وَسَارَتْ بِنَا السَّفِينَةَ فِي الْبَحْرِ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ حَلَّتْ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ بِشَاطِئِ جَزِيرَةٍ نَائِيَةٍ، فَاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ أَنْ نَسْتَرِيحَ فِيهَا قَلِيلًا، ثُمَّ نَسْتَأْنِفَ سَيْرَنَا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ. وَقَضَيْنَا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ تَفَرَّقَ فِيهَا أَوْلِيَاكَ الرَّجَالُ يَجُوبُونَ أَنْحَاءَ الْجَزِيرَةِ، وَبَقِيَتْ مُنْفَرِدَةً إِلَى الْمَسَاءِ دُونَ أَنْ يُعُودَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَصَعِدْتُ إِلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ، وَنِمْتُ بَيْنَ أَغْصَانِهَا إِلَى الصَّبَاحِ وَأَنَا أَفْكَرُ فِي وَسِيلَةِ لِلْهَرَبِ مِنْهَا. وَلَبِثْتُ فِي الْجَزِيرَةِ أَيَّامًا أَكُلُّ مِنْ ثِمَارِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، وَأَنَا مَ فَوْقَ أَشْجَارِهَا، وَأَجُوسُ فِي أَنْحَائِهَا، حَتَّى سَاقَنْتَنِي قَدَمَائِي — ذَاتَ يَوْمٍ — إِلَى غَابَةِ كَبِيرَةٍ انْتَهَى بِي السَّيْرُ فِيهَا إِلَى الْقَصْرِ السَّعِيدِ.»

(٩) تَرْحِيبُ الْبَبْغَاءِ

وَهُنَا حَدَّثْتَهُمُ الْأَمِيرَةُ عَنْ تِمْنَالِ الْفَتَاةِ حَدِيثًا يَكَادُ لَا يَخْتَلِفُ عَمَّا حَدَّثْتَهُمْ بِهِ الْأَمِيرُ «فَاضِلٌ»، وَقَصَّتْ عَلَيْهِمْ كَيْفَ أَخَذَتْ مِفْتَاحَ الْقَصْرِ السَّعِيدِ، دُونَ أَنْ يُغْرِبَهَا الطَّمَعُ بِاِغْتِصَابِ حُلِيِّهَا وَانْتِهَابِ لَائِلِهَا، وَكَيْفَ فُتِحَ لَهَا بَابُ الْقَصْرِ السَّعِيدِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ، وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَتْهَا الْبَبْغَاءُ «صَبِيحَةً» حَارِسَةَ الْقَصْرِ، فَرِحَانَةً بِمَقْدَمِهَا، وَكَيْفَ أَفْضَتْ إِلَيْهَا بِمَا لَقِيَهُ خَاطِفُهَا مِنْ جَزَاءٍ عَادِلٍ.

قَالَتْ الْبَبْغَاءُ: «كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنْ يُعْرَجَ أَعْوَانُ «مَرْمُوشٍ» عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، بَعْدَ أَنْ نَتَرُوا فِي حُجْرَةِ نَوْمِكَ عَطْرًا مُرَقَّدًا (مُنَوِّمًا) ثُمَّ خَطَفُوكَ مِنْ قَصْرِ الرَّبِيعِ، دُونَ أَنْ يَفْطُنَ إِلَى حَدِيثِهِمْ أَحَدٌ، لِيُقَدِّمُوكَ هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ «مَرْمُوشٍ» فَسَأَلْتُ الْبَبْغَاءَ: «وَمَاذَا كَانَ مَصِيرُ الْخَاطِفِينَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةً»: «تَفَرَّقُوا يَنْتَزِعُونَ فِي أَرْجَاءِ الْجَزِيرَةِ، وَشَغَلَهُمْ طِيبُ جَوْهَا، وَجَمَالُ هَوَائِهَا، وَلَذِيذُ ثِمَارِهَا، عَنِ الْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِهِمْ. وَسَاقَهُمْ سُوءُ حَظِّهِمْ — وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ — إِلَى تِمْنَالِ الْفَتَاةِ، فَشَغَلَتْهُمْ حُلِيِّهَا وَنَفَائِسُهَا عَنْ مِفْتَاحِ الْقَصْرِ، وَأَنْسَتْهُمْ مَا قَرَأُوا مِنْ نَذِيرٍ وَتَحْذِيرٍ، فَفَقَّتَهُمُ الْحَارِسَانُ، وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الضَّوَارِي (الْوَحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ) وَالْحَشَرَاتُ، فَالْتَهَمَتْهُمْ فِي لَحْظَاتٍ. وَهَكَذَا هَلَكُوا مُتَفَرِّقِينَ، دُونَ أَنْ يَفْطُنَ أَحَدُهُمْ لِمِصْرَعٍ مِنْ سَبْقِهِ مِنَ الطَّامِعِينَ.»

وَسَأَلْتُ الْبَبْغَاءَ: «كَيْفَ يَتَأَخَّرُ لِي الْخُرُوجُ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ؟» فَقَالَتْ: «لِكُلِّ شَيْءٍ أَوَانٌ، وَلِكُلِّ زَرْعٍ إِبَانٌ (وَقْتُ). وَسَيَمُّمٌ خَلَاصِكَ مِنْ كُرْبَتِكَ، وَإِيقَاطُكَ مِنْ نَوْمَتِكَ، عَلَى يَدِ أَمِيرٍ فَاضِلٍ شَجَاعٍ، سَيِّدٍ مُطَاعٍ، كَرِيمٍ الْأَصْلِ، رَاجِحِ الْعَقْلِ، فَاصْبِرْ يَا فَتَاةُ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ.»

(١٠) نَوْمٌ وَيَقْظَةٌ

وَهُنَا شَعَرْتُ بِحَاجَةِ إِلَى النَّوْمِ، فَالْقَيْتُ بِجِسْمِي الْمَجْهُودِ عَلَى سَرِيرٍ قَرِيبٍ. وَأَسْلَمْتُ جَفْنِي لِلرُّقَادِ، وَمَا زِلْتُ نَائِمَةً حَتَّى أَيْقَظَنِي هَذَا الْأَمِيرُ الْفَاضِلُ مِنْ سُبَاتِي الْعَمِيقِ. ثُمَّ قَصَّتِ الْفَتَاةُ مَا دَارَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَمِيرِ «فَاضِلٍ» مِنْ حِوَارٍ، وَكَيْفَ اسْتَخْفَى عَنْ عَيْنَيْهَا، وَغَابَ عَنْ نَظَرِهَا، ثُمَّ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا النَّوْمُ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا انْتَبَهَتْ مِنْ رُقَادِهَا،

الفصل السادس

رَأَتْ الْقَصْرَ السَّعِيدَ قَدْ انْتَقَلَ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ بِجَوَارِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ، وَسَمِعَتْ الْبَيْغَاءَ
«صَبِيحَةَ» تُنَادِيهَا، وَتَرَجُّوهَا أَنْ تُسْرِعَ إِلَى لِقَاءِ أَخِيهَا وَتَدْعُوهُ — مَعَ جُنْدِهِ وَأَصْحَابِهِ —
لِزِيَارَةِ الْقَصْرِ السَّعِيدِ، لِيَتِمَّ عَلَى أَيْدِيهِمْ مَا بَدَّوهُ مِنْ صَنِيعٍ مَجِيدٍ.

الفصل السابع

(١) أسماء الأمراء

كَانَ الْقَصْرُ السَّعِيدُ — كَمَا رَأَهُ زَائِرُوهُ — آيَةً مِنْ آيَاتِ الْفَنِّ الْعَالِيِ وَالذَّوْقِ السَّلِيمِ، فَلَا عَجَبَ إِذَا نَهَشَ الْأُمَرَاءُ وَالْجُنْدُ حِينَ ارْتَادُوا حَدَائِقَهُ وَأَبْهَاءَهُ، وَشَهِدُوا أَضْوَاءَهُ وَأَلْأَاءَهُ. وَلَا تَسَلْ عَنِ ابْتِهَاجِهِمْ بِمَا شَهِدُوهُ مِنْ جَمَالِ تَصَاوِيرِهِ، وَبِرَاعَةِ هُنْدَسَتِهِ. وَقَدْ قَضَى الْأُمَرَاءُ أُمْسِيَّةً حَافِلَةً بِجَالِبَاتِ الْبَهْجَةِ، وَبَاعِثَاتِ السُّرُورِ، وَقَدْ حَفَلَتْ مَوَائِدُهُمْ بِمَا لَذَّ وَطَابَ، مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، فَظَلَّ الْأُمَرَاءُ يَسْمُرُونَ جَانِبًا مِنَ اللَّيْلِ.

تَسَأَلُنِي: أَيُّ حَدِيثٍ كَانَ مَوْضُوعَ جَوَارِهِمْ، وَمَدَارَ سَمَرِهِمْ؟ وَمَا أَحْسَبُكَ إِلَّا عَارِفًا بِجَوَابِ سُؤَالِكَ، فَلَنْ يَغِيبَ عَنِّي عَنْ فِطْنَتِكَ أَنَّ جَوَارَهُمْ لَمْ يَعُدَّ الْحَدِيثَ عَمَّا لَاقَوْهُ فِي سَفَرِهِمْ مِنْ مُدْهِشَاتٍ وَعَرَائِبٍ، وَمَا تَعَرَّضُوا لَهُ فِي رِحْلَتِهِمْ مِنْ كَوَارِثٍ وَمَصَائِبٍ، وَكَيْفَ اجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتِيْتُ، بَعْدَ أَنْ طَوَّحَتْ بِهِمُ الْأَقْدَارُ فِي مَطَارِحِ الْأَرْضِ؛ فَنَسُوا بِذَلِكَ كُلِّ مَا اعْتَرَضَهُمْ مِنْ مَصَائِبٍ وَمِحَنٍ. ثُمَّ عَرَّجُوا عَلَى مَا أَصَابَ مَدِينَةَ النُّحَاسِ، وَمَا لَحِقَ بِسَاكِنِيهَا مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ وَنَاسٍ. وَرَاحُوا يُقَلِّبُونَ الْأَمْرَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى سَبَبٍ يُعَوَّلُونَ عَلَيْهِ، أَوْ تَعْلِيلٍ تَرْتَاحُ عُقُولُهُمْ إِلَيْهِ.

(٢) كَشَفُ السُّتَارِ

وَهُنَا قَالَتِ الْبَبَّعَاءُ «صَبِيحَةَ»: «عِنْدِي جَوَابٌ مَا تَسْأَلُونَ، فَهَلْ أَنْتُمْ لِمَا أَقُولُ سَامِعُونَ؟»
فَقَالُوا لَهَا فِي شَوْقٍ وَلَهْفَةٍ: «أَدَانْنَا لِحَدِيثِكَ سَامِعَةً، وَقُلُوبُنَا لِمَا تَقُولِينَ وَاعِيَةً.»
فَقَالَتِ الْبَبَّعَاءُ: «لَعَلَّ الْأَمِيرَيْنِ «فَاضِلًا» وَأُحْتَهُ «رَائِعَةً» لَا يَعْرِفَانِ الْكَثِيرَ عَنِ الْمَلِكِ
«فُرْهُودٍ» جَدَّهُمَا لِأَبِيهِمَا، وَلَا عَنِ ابْنِ عَمِّهِ الْأَمِيرِ «سَوْدَلٍ» جَدَّهُمَا لِأُمَّهُمَا. وَقَدْ أَنْ لُهُمَا أَنْ
يَعْرِفَا مَا كَانَ لِجَدَّهُمَا «فُرْهُودٍ» مِنْ شَأْنٍ عَظِيمٍ، وَفَضْلِ عَمِيمٍ، فَقَدْ ذَاعَ صَيْئُهُ فِي الْبِلَادِ،
بِمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ عَدْلِ وَحَزْمٍ وَرَشَادٍ. وَكَانَ مَوْضِعَ إِجْلَالِ مُلُوكِ عَصْرِهِ قَاطِبَةً، وَكَانَ مِنَ
الْمَعْمَرِينَ.

(٣) رُؤْيَا «فُرْهُودٍ»

وَقَدْ رَأَى فِي نَوْمِهِ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ دَابَّةً غَرِيبَةً الشَّكْلِ، لَهَا ذَيْلٌ تُعْبَانِ وَجِسْمٌ سَمَكَةٌ، وَجَنَاحَا
نَسْرٍ، وَوَجْهُ بُومَةٍ. وَشَهِدَهَا تَطِيرُ فِي الْفَضَاءِ حَتَّى تَبْلُغَ ذِرْوَةَ الْجَبَلِ، ثُمَّ تَعُودُ مُنْدَفِعَةً إِلَى
الْمَدِينَةِ، وَتَحُلُّ فِي حَدِيقَةِ قَصْرِهِ، فَتَنْعَبُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. وَسَمِعَ لَتْنَعَابِهَا الْكَرِيهَ صَوْتًا يُصِمُّ
الْآذَانَ. وَرَأَى الْحَدِيقَةَ قَدْ ذَوَتْ أَزْهَارُهَا، وَصُوحٌ نَبْتُهَا، وَتَهَاوَى طَيْرُهَا، وَدَبَّ الْمَوْتُ فِي
أَرْجَائِهَا.

فَانْتَبَهَ الْمَلِكُ «فُرْهُودٌ» مِنْ نَوْمِهِ مَذْعُورًا، وَدَعَا ابْنَ عَمِّهِ الْأَمِيرَ «سَوْدَلًا»، وَقَصَّ عَلَيْهِ
رُؤْيَاهُ فَقَالَ لَهُ «سَوْدَلٌ»: «لَا مَعْدَى لَنَا عَنِ اسْتِشَارَةِ «صَفْصَافَةَ» الْحَكِيمِ، فَعِنْدَهُ تَأْوِيلُ
هَذِهِ الرُّؤْيَا، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُشِيرَ عَلَيْنَا بِالرَّأْيِ الرَّاجِحِ.»
وَكَانَ «صَفْصَافَةَ» سَاحِرَ عَصْرِهِ. وَكَانَ الْمَلِكُ «فُرْهُودٌ» يُصْفِيهِ الْوَدَّ مِنْذُ طُفُولَتَيْهِمَا إِلَى
أَنْ بَلَغَا سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ، فَلَمَّا قَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَيْهِ أَطْرَقَ «صَفْصَافَةَ» مُتَجَهِّمًا، وَقَالَ لِمَلِيكِهِ:
«يَا لَهُ مِنْ حُلْمٍ خَطِيرٍ، يَحْمِلُ فِي ثَنَائِيهِ أَفْدَحَ النَّكَبَاتِ. وَلَا مَعْدَى لَنَا عَنِ التَّجْمُلِ وَالصَّبْرِ،
حَتَّى يَنْفَدَ قِضَاءُ اللَّهِ فِيْنَا، وَتَجْرِي أَحْكَامُهُ عَلَى ذَوِينَا. وَلَنْ يُثْنِيَنِي عَائِقُ عَنِ السَّعْيِ فِي
تَهْوِينِ وَقَعِهِ الْأَلِيمِ، وَتَخْفِيفِ ضَرَرِهِ الْجَسِيمِ، مَا وَسَعَنِي الْجُهْدُ وَسَاعَفَنِي الْعِلْمُ، فَأَمَّهْلَنِي
شَهْرَيْنِ، لَعَلِّي أَوْفَّقُ فِي مَسْعَايَ.»

وَعَابَ «صَفْصَافَةً» عَن مَلِيكِهِ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ فِي لَهْجَةِ الْمُطَمِّنِّ الْوَائِقِ: «كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ إِذَا حَسُنَتْ نَهَائِيَّتُهُ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ الْكَارِثَةَ الَّتِي تَحُلُّ بِهِذِهِ الْمَدِينَةَ لَنْ يَزِيدَ عُمرُهَا عَن عَامٍ وَنِصْفِ عَامٍ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَهْلِهَا الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ، بَعْدَ أَنْ يَنْعَرَّضَ ثَلَاثَةَ مِنْ كِرَامِ الْأُمَرَاءِ لِلْحِمَامِ (لِلْمَوْتِ). وَقَدْ بَدَلْتُ مَا فِي وَسْعِي لِتَأْمِينِ الْمَدِينَةِ فِي خِلَالِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ مِنْ كُلِّ طَامِعٍ فِي غَزْوِهَا، أَوْ مُتَطَلِّعٍ لِنَهْيِهَا وَسَلْبِهَا، فَلَا يُسَاوِرُكَ الْهَمُّ، وَلَا يُبْرِحُ بِكَ الْغَمُّ وَفَوْضُ أَمْرِكَ لِخَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَرَازِقِ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ؛ فَهُوَ أَبْرُّ بِنَا وَأَرْحَمُ، وَأَرْفُقُ عَلَيْنَا وَأَكْرَمُ.»

فَسَأَلَهُ «فُرْهُودٌ»: «أَقْرَبِيَّةُ هَذِهِ الْمِحْنَةُ أَمْ بَعِيدَةٌ؟»

فَأَجَابَهُ «صَفْصَافَةً»: «لَنْ تَقَعَ هَذِهِ الْمِحْنَةُ فِي عَهْدِكَ، بَلْ فِي عَهْدِ «أَسَامَةَ» وَكَذَلِكَ.»

(٤) فَضْلُ «صَفْصَافَةَ»

وَقَدْ صَدَقَ «صَفْصَافَةَ» فِيمَا قَالَ، وَبَرَّ بِمَا وَعَدَ، وَكَانَ لِبِرَاعَتِهِ أَحْمَدُ الْأَثَرِ فِي تَأْمِينِ الطَّرِيقِ، وَكَبْرُ الْجُهْدِ فِي تَهْيِئَةِ الْوَسَائِلِ لِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ، فَقَدْ كَانَ لَهُ الْفَضْلُ فِي إِقَامَةِ سُورِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَالِي، وَتَرْوِيدِهِ بِمَا نَقَشَهُ مِنْ طَلَاسِمٍ وَأَرْصَادٍ، لِصَدِّ الْغُزَاةِ وَالرُّوَادِ، وَمَا أَعَدَّهُ مِنْ فَاتِنَاتِ الْجَوَارِي الَّتِي تَلُوحُ لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِاقْتِحَامِ السُّورِ، فَيُنْدَفِعُ نَحْوَهُنَّ، وَنُدُقُ عُنُقَهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِنَّ. وَبِهَذَا ضَمِنَ أَلَّا يَفْتَحَ الْمَدِينَةَ إِلَّا مَا جِدَّ كَرِيمٌ، جَدِيرٌ بِتَفْرِيجِ كُرْبَيْتِهَا، وَتَخْلِيصِهَا مِنْ مِحْنَتِهَا.

وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى هَذَا الصُّنْعِ الْمَجِيدِ؛ فَأَنْشَأَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ هَذَا الْقَصْرِ السَّعِيدِ، وَأَقَامَنِي وَإِخْوَتِي مِنَ الْجَنِّ فِيهِ، لِنَتَوَلَّى حِرَاسَتَهُ، فَكَانَ مَوْثِقًا لِلْأَمِيرِينَ مَكِينًا، وَحَصِينًا حَصِينًا. وَقَدْ وَضَعَ فِيهِ تَمَثَالَ الْفِتَاةِ الْحَسَنَاءِ الَّتِي رَأَاهَا الْأَمِيرَانِ، وَنَتَرَّ حَوْلَهَا نَفِيسَ اللُّوْلُوجِ وَالْمَرْجَانِ، لِتُغْرِي الطَّامِعِينَ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ الْقَصْرَ إِلَّا مُخْلِصٌ أَمِينٌ.»

وَلَمَّا أَنْتَهَتْ «صَبِيحَةٌ» مِنْ حَدِيثِهَا سَأَلَهَا الْأُمَرَاءُ الْأَرْبَعَةَ مُتْلِهْفِينَ: «وَكَيْفَ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ؟ وَأَيُّ سَاحِرٍ دَبَّرَ هَذِهِ الْفَاجِعَةَ؟»

فَقَالَ الْأَمِيرُ «فَاضِلٌ»: «لَا رَيْبَ أَنََّّهُ الْمَلِكُ «مَرْمُوشٌ» الْحَقُودُ وَوَزِيرُهُ «أُنْبُوشٌ»، فَكِلَاهُمَا عَدُوٌّ لَنَا لَدُودٌ، وَهُمَا بِأَمْتَالِ هَذِهِ الدَّسَائِسِ أَخْبَرُ، وَبِتَدْبِيرِ هَذِهِ الْمَكَائِدِ أَبْصَرُ، وَعَلَى تَنْفِيذِهَا أَقْدَرُ!»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «لَوْ اسْتَطَاعَ «مَرْمُوشٌ» ذَلِكَ لَمَا تَوَانَى وَلَا قَصَرَ، وَلَا تَرَدَّدَ وَلَا تَأَخَّرَ، وَلَكِنَّهُ أَعْجَزُ عَنِ بُلُوغِ هَذِهِ الْغَايَةِ وَأَصْغَرُ، وَأَقْلُّ وَأَحْقَرُ. كَلَّا أَيُّهَا الْإِخْوَانُ، فَلَيْسَ لَهُ فِي هَذِهِ النَّكْبَةِ شَأْنٌ، وَلَا طَاقَةَ لَهُ بِتَدْبِيرِهَا وَلَا يَدَانِ؛ بَلْ هِيَ مِحْنَةٌ غَيْرُ مُتَعَمِّدَةٍ وَلَا مَقْصُودَةٍ. وَلَوْ لَا لَطْفُ اللَّهِ لَضَاعَ كُلُّ أَمَلٍ فِي انْفِرَاجِ الْأَزْمَةِ، وَكَشَفِ الْغُمَّةِ.»

فَسَأَلَهَا الْأَمْرَاءُ مَدْهُوشِينَ: «كَيْفَ تَقُولِينَ؟ وَمَاذَا تَعْنِينَ؟ بِرَبِّكَ إِلَّا مَا أَفْصَحْتَ عَمَّا أَلْغَزْتَ، وَأَوْضَحْتَ لَنَا مَا أَبْهَمْتَ.»

(٥) السَّاحِرُ «عَوْسَجَةُ»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «كَانَ «صَفْصَافَةٌ» فِي عَصْرِهِ سَاحِرَ الْهِنْدِ الْأَكْبَرَ، كَمَا أَسْلَفْتُ لَكُمْ الْقَوْلَ، فَلَمَّا مَاتَ ظَهَرَ سَاحِرٌ آخَرٌ لَا يَقُولُ عَنِ «صَفْصَافَةَ» قُدْرَةَ وَمَهَارَةَ، وَخَبْرَةَ بِالسَّحْرِ وَبِصَارَةَ. إِنَّهُ «عَوْسَجَةُ» السَّاحِرُ. وَكَانَ أَبُوهُ وَزِيرَ الْمَلِكِ «صَلْدَمٌ». وَكَانَ هَذَا الْمَلِكُ كَمَا تَعْلَمُونَ خَادِعًا مَاجِرًا، مُسْتَبِدًّا جَائِرًا، لَمْ يَتَوَرَّعْ عَنِ اغْتِيَالِ وَزِيرِهِ النَّاصِحِ الْأَمِينِ، بَعْدَ أَنْ أَخْلَصَ لَهُ النُّصْحَ وَأَصْفَاهُ الْوَدَّ. وَقَدْ شَهِدَ «عَوْسَجَةُ» — وَهُوَ فِي مُقْتَبَلِ صِبَاهٍ — كَيْفَ صَرَخَ «صَلْدَمٌ» الْغَادِرُ أَبَاهُ، فَهَرَبَ «عَوْسَجَةُ» إِلَى بِلَادِ النَّبْتِ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ قَاتِلِ أَبِيهِ، وَمَا زَالَ يُوَاصِلُ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ حَتَّى بَرَعَ فِي فُنُونِ السَّحْرِ، وَفَاقَ أَسَاتِذَتَهُ وَمُعَلِّمِيهِ، فَأَصْبَحَ بَعْدَ مَوْتِ «صَفْصَافَةَ» سَاحِرَ الْهِنْدِ الْأَوْحَدِ.

(٦) بُوُقُ «عَوْسَجَةُ»

فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ عَكَّفَ عَلَى تَدْبِيرِ وَسِيلَةٍ لِالْإِنْتِقَامِ مِنْ قَاتِلِ أَبِيهِ، فَلَبِثَ عَشْرِينَ عَامًا كَامِلَةً عَاكِفًا عَلَى صُنْعِ بُوُقِهِ الذَّهَبِيِّ الصَّغِيرِ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّهُ أَعَدَّ الْعُدَّةَ لِلسَّفَرِ إِلَى مَدِينَةِ «صَلْدَمٍ» قَاتِلِ أَبِيهِ. وَمَا زَالَ يُوَاصِلُ سَيْرَهُ حَتَّى بَلَغَ مُنْتَصَفَ طَرِيقِهِ إِلَيْهِ. وَشَاءَتِ الْأَقْدَارُ أَنْ يَسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامُ عَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، فَيَسْتَمِعَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ التُّجَّارِ قَدِمُوا مِنْ بِلَادِ

عَدُوهُ، فَيَتَعَرَّفَ مِنْ حَدِيثِهِمْ مَصْرَع «صَلِّدِم»، وَكَيْفَ زَلَّتْ قَدَمُهُ وَهُوَ يُطَارِدُ أَحَدَ الْغَزْلَانِ، فَهَوَى مِنْ قِمَّةِ الْجَبَلِ، وَتَنَاءَرَتْ أَشْلَاءُ جِسْمِهِ، وَاخْتَلَطَ لَحْمُهُ بِعَظْمِهِ. وَهُنَا زَالَ غَضَبُ «عَوْسَجَةَ» وَانْصَرَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْإِنْتِقَامِ، وَخَشِيَ أَنْ يَقَعَ الْبُوقُ الذَّهَبِيُّ الْمَسْحُورُ فِي يَدِ غَيْرِهِ، فَيُسَيِّءُ بِهِ — عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ — إِلَى الْإِمْنِينِ، فَأَلْقَى بِهِ إِلَى الْبَحْرِ، وَكَرَّ إِلَى وَطْنِهِ رَاجِعًا، فَمَاتَ فِي طَرِيقِهِ.

(٧) خَصَائِصُ الْبُوقِ

فَسَأَلَهَا الْأَمْرَأُ: «فَأَيُّ سِرٍّ أَوْدَعَهُ السَّاحِرُ فِي هَذَا الْبُوقِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِيَنْتَقِمَ بِهِ مِنْ عَدُوِّهِ؟» فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «لَقَدْ أُوْدِعَ فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ السُّحْرِ مَا لَا يَخَيَّلُهُ الْعَقْلُ، فَقَدْ يَسَّرَ لِنَافِحِهِ مِنْ فُنُونِ الْإِنْتِقَامِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ، وَأَتَّاحَ لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى النَّسْخِ وَالْمَسْخِ وَالْفَسْخِ وَالرَّسْخِ.»

فَسَأَلَهَا الْأَمْرَأُ مُتَحَيِّرِينَ: «أَفَصِحِي بِرَبِّكَ عَمَا تَقُولِينَ، فَمَا نَحْنُ عَلَى فَهْمِ الْغَزَاكِ بِقَادِرِينَ: مَاذَا تَعْنِينَ بِالنَّسْخِ وَالْمَسْخِ وَالْفَسْخِ وَالرَّسْخِ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «فِي الْمُرْتَبَةِ الْأُولَى يَنْتَقِلُ الْأَدْمِيُّ مِنْ صُورَتِهِ إِلَى صُورَةِ أَعْلَى وَأَشْرَفَ. وَفِي الثَّانِيَةِ يَنْتَقِلُ إِلَى صُورَةِ إِحْدَى الْبِهَائِمِ. وَفِي الثَّلَاثَةِ يَنْتَقِلُ إِلَى صُورَةِ بَعْضِ الْحَشَرَاتِ. وَفِي الرَّابِعَةِ يَنْحَوِلُ نَبَاتًا أَوْ جِمَادًا.»

فَصَرَخَ الْأَمْرَأُ مَدْهُوشِينَ: «وَكَيْفَ يَتِمُّ ذَلِكَ لِمَنْ يَنْفُخُ فِي الْبُوقِ؟» فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «حَسْبُهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فِي ذَهْنِهِ الصُّورَةَ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يُحَوِّلَ إِلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ، أَوْ يَذْكَرُ عَلَى لِسَانِهِ اسْمَ حَيَوَانَ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ مَعْدِنٍ — حَسِيْسًا كَانَ أَوْ حَقِيرًا — فَلَا تَنْقُضِي لِحَظَاتٍ قَلِيلَةً بَعْدَ أَنْ يَنْفُخَ فِي الْبُوقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، حَتَّى يَبْلُغَ النَّافِخُ مُرَادَهُ، وَيَتِمُّ لَهُ مَا أَرَادَهُ.»

فَقَالَ «إِقْبَالُ»: «لَقَدْ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ «عَوْسَجَةَ» قَدَفَ الْبُوقَ فِي الْبَحْرِ، فَمَاذَا حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «بَلَعَتْهُ سَمَكَةٌ، وَجَاءَ صَيَّادٌ فَاصْطَادَهَا. وَمَرَّ بِالصَّيَّادِ نَسْرٌ، فَانْتَهَرَ مِنَ الصَّيَّادِ عَفْلَةً، فَحَطَفَ السَّمَكَةَ، ثُمَّ طَارَ بِهَا إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ، فَرَأَى ثَلَّةً مِنَ النَّاسِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ عَشِهِ، فَعَادَ بِهَا أَنْدَرَجَهُ، وَاسْتَقَرَّ عَلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ فِي حَدِيقَةِ الْمَلِكِ، فَأَكَلَ السَّمَكَةَ

وَتَرَكَ الْبُوقَ، وَلَمْ يَلْبِثِ الْبُوقُ أَنْ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ. وَجَاءَ وَكِدُّ الْبُسْتَانِيِّ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ فَرَأَى الْبُوقَ الذَّهَبِيَّ الصَّغِيرَ، فَأَعْجَبَ بِمَنْظَرِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ — عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ — ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فِإِذَا كُلُّ مَنْ بِالْمَدِينَةِ تَمَائِيلٌ مِنَ النَّحَاسِ.»

فَسَأَلَتْهَا «رَائِعَةٌ»: «وَلِمَاذَا تَحَوَّلُوا نَحَاسًا وَلَمْ يَتَحَوَّلُوا شَيْئًا آخَرَ؟»
فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «كَانَ وَكِدُّ الْبُسْتَانِيِّ يَحْسَبُ الْبُوقَ الذَّهَبِيَّ بُوقًا مِنَ النَّحَاسِ، فَاتَّجَهَ زِهْنُهُ إِلَى هَذَا الْمَعْدِنِ.»

فَقَالَ «فَاضِلٌ»: «الآنَ ظَهَرَ أَنَّ «مَرْمُوشًا» لَا يَدَّ لَهُ فِي هَذِهِ النَّكْبَةِ.»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «بَلْ كَانَ لَهُ يَدٌ فِي تَأْمِينِ الْمَدِينَةِ وَسَلَامَتِهَا.»

فَقَالَتْ «وَادِعَةٌ»: «وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «لَوْلَا قُدُومُ جَيْشِهِ اللَّحِبِ لِعَزُوِ الْمَدِينَةِ لَمَا فَكَّرَ أَحَدٌ فِي إِغْلَاقِ أَبْوَابِهَا، لِرَدِّ عُدُوَانٍ مَنْ يُفَكِّرُ فِي غَزْوِهَا وَانْتِهَابِ كُنُوزِهَا، فَقَدْ حَاوَلَ «مَرْمُوشٌ» أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ فَعَجَزَ عَنْ ذَلِكَ وَرَجَعَ خَائِبًا مَدْحُورًا. وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ غَيْرُ الْأَمِيرِ «إِقْبَالِ» عَلَى اقْتِحَامِ سُورِهَا الْعَالِيِ، وَفَتْحِ بَابِهَا الْمُنِيْعِ.»

فَقَالَتْ «رَائِعَةٌ»: «رُبَّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٌ.»

وَقَالَ «إِقْبَالٌ»: «أَلَا سَبِيلٌ إِلَى تَخْلِيصِ الْمَدِينَةِ مِنْ مِحْنَتِهَا؟ وَتَفْرِيجِ كُرْبَتِهَا؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «بَلَى، وَقَدْ اجْتَمَعَتِ الْأَسْبَابُ، وَحَانَتِ الْفُرْصَةُ لِإِنْجَازِ هَذَا الْمُهْمِ الْعَظِيمِ.»

فَقَالَ «إِقْبَالٌ»: «وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةٌ»: «لَمْ يَبْقَ عَلَى كَشْفِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ غَيْرُ سَاعَاتٍ وَدَقَائِقَ، ثُمَّ يَنْجَلِي لِأَعْيُنِكُمْ صِدْقٌ مَا سَمِعْتُمُوهُ مِنْ حَقَائِقَ.»

وَأَرَادَ الْأَمْرَاءُ أَنْ يَتِمَادُوا فِي أَسْلَتِهِمْ، لَوْلَا أَنَّ سِنَّةً مِنَ النَّوْمِ طَافَتْ بِأَجْفَانِهِمْ، فَاسْلَمَتْهُمْ إِلَى الرُّقَادِ.

فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ اسْتَيْقَظَ الْأَمِيرُ «إِقْبَالٌ» فَجَالَ فِي جَنَابَاتِ الْقَصْرِ، وَقَدْ شَغَلَهُ التَّفَكِيرُ فِي إِنْقَازِ الْمَدِينَةِ عَنْ كُلِّ مَا يَحْوِيهِ مِنْ نَفَائِسٍ وَتُحَفٍ، فَمَشَى إِلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، فَرَأَاهَا قَدْ اتَّصَلَتْ بِحَدِيقَةِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ فَوَاصِلَ سَيْرِهِ قَلِيلًا، وَحَانَتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ، فَرَأَى الْبُوقَ الذَّهَبِيَّ الصَّغِيرَ، فَالْتَقَطَهُ وَعَادَ بِهِ أَدْرَاجَهُ، لِيُحَدِّثَ أَصْحَابَهُ بِمَا رَأَاهُ.

(٨) خاتمة القصة

وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ حُجْرَتِهِمْ رَأَى بُوقَ «عَوْسَجَةَ» يَنْجَذِبُ إِلَى شَفَتَيْهِ؛ فَلَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ، وَهُوَ مَشْغُولُ الْبَالِ بِرَدِّ الْحَيَاةِ إِلَى التَّمَاثِيلِ الْجَامِدَةِ، فَمَا إِنَّ أْتَمَّ نَفْحَهُ مَرَّاتٍ ثَلَاثًا حَتَّى تَحَقَّقَتِ الْأَمَالُ عَلَى يَدَيْهِ، وَدَبَّتِ الْحَرَكََةُ فِي تَمَاثِيلِ النُّحَاسِ، وَعَادَ إِلَى الْحَيَاةِ كُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ حَيَوَانَ وَطَيْرٍ وَنَاسٍ. وَاسْتَيْقَظَ الْأُمَرَاءُ الثَّلَاثَةُ مِنْ نَوْمِهِمْ مَدْهُوشِينَ.

فَقَالَتِ الْأَمِيرَةُ «رَائِعَةٌ» لِلْأَمِيرَيْنِ «إِقْبَالٍ» وَ«وَادِعَةٌ»: «مَا أَشْبَهَ هَذَا الصَّوْتَ بِمَا سَمِعْتُهُ مِنْذُ عَامٍ وَنِصْفٍ عَامٍ.»

لَقَدْ صَدَقَتْ «رَائِعَةٌ». وَلَكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ، شَتَّانَ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ: صَوْتِ الْيَوْمِ وَصَوْتِ الْأَمْسِ. هَذَا يَجْلِبُ السَّعَادَةَ وَذَلِكَ يَجْلِبُ النُّحْسَ، هَذَا يُعِيدُ الْحَيَاةَ وَذَلِكَ يَدْفَعُ إِلَى الرَّمْسِ (القبر)!

وَهَمَّتْ «رَائِعَةٌ» أَنْ تُسْرِعَ إِلَى لِقَاءِ أَبِيهَا، فَرَأَتْهُ مَاتِلًا أَمَامَهَا قَبْلَ أَنْ تَنْقُلَ قَدَمًا، فَقَدْ أَحْضَرَتْهُ الْجَنِيَّةُ «صَبِيحَةٌ» إِلَى الْقَصْرِ السَّعِيدِ قَبْلَ أَنْ يَنْفُخَ الْأَمِيرُ فِي الْبُوقِ بِلَحْظَاتٍ، فَلَمَّا عَادَتْ إِلَيْهِ الْحَيَاةَ سَمِعَ ابْنَيْهِ فِي الْحُجْرَةِ التَّالِيَةِ، فَانْتَقَلَ إِلَيْهِمَا، وَعَقَدَتْ دَهْشَةَ الْفَرَحِ أَلْسِنَتَهُمْ جَمِيعًا؛ فَبَكَوْا فِتْرَةً مِنْ فُرْطِ السُّرُورِ. وَكَانَتْ سَاعَةٌ بَهِيجَةٌ يَتَضَاءَلُ أَمَامَهَا الْعُمُرُ كُلُّهُ. وَأَقْبَلَ الْأَمِيرَانِ يَبْسُطَانِ لِلْمَلِكِ تَفْصِيلَ مَا حَدَثَ. وَمَا إِنَّ بَلَّغُوا مِنَ الْقِصَّةِ نَهَايَتَهَا حَتَّى رَأَوْا الْمَلِكَ «عَاصِمًا» وَالِدَ الْأَمِيرَيْنِ «وَادِعَةً» وَ«إِقْبَالٍ» وَاقْفًا أَمَامَهُمَا. وَمَا إِنَّ رَأَهُ وَكَلَدَاهُ، حَتَّى أَسْرَعَا يُرْحَبَانِ بِهِ وَيُعَانِقَانِهِ، وَيَسْأَلَانِهِ: كَيْفَ اهْتَدَى إِلَى مَكَانِهِمَا؟

فَأَسْرَعَتْ «صَبِيحَةٌ» إِلَى إِجَابَتِهِمَا، وَقَالَتْ لَهُمَا: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ الْبَهْجَةَ لَا تَبِثُّ إِلَّا بِحُضُورِ الْمَلِكَيْنِ، لِيَشْهَدَا زَوَاجَ الْأَمِيرَيْنِ بِالْأَمِيرَتَيْنِ.»

وَهَكَذَا أُقِيمَتِ الْأَفْرَاحُ، وَابْتَهَجَ الشَّعْبُ كُلُّهُ أَيَّامًا ابْتِهَاجٍ.

وَكَانَ يَجْرُ الْمُرْكَبَةُ الْمَلِكِيَّةُ جَوَادَانِ كَبِيرَانِ، لَا نَظِيرَ لَهُمَا فِي الْخَيْلِ رَوْعَةً وَفَخَامَةً، وَحُسْنًا وَقِسَامَةً، أَحْضَرَتْهُمَا الْبِغَاءُ لِيَتِمَّ بِهِمَا الْبَهْجَةُ وَالرَّوَاءُ. وَلَا تَسَلُ عَنْ دَهْشَةِ الْمَلِكَيْنِ وَالْأُمَرَاءِ حِينَ أَخْبَرَتْهُمَا «صَبِيحَةٌ» أَنَّ الْجَوَادَيْنِ اللَّذَيْنِ أَحْضَرَتْهُمَا لِيَجْرَا مَرْكَبَةَ الرِّفَافِ هُمَا الْمَلِكُ «مَرْمُوشٌ» وَوَزِيرُهُ «أُنْبُوشٌ» اللَّذَانِ أَسْرَفَا فِي إِسَاءَتِهِمَا، وَتَمَادِيَا فِي اعْتِدَائِهِمَا،

وَتَفَنَّا فِي أذْيَةِ جِرَانِهِمَا، وَلَمْ يَتَوَانِيَا عَنْ إِحْقَاقِ الْأَذَى بِالرِّيَّةِ، بَعْدَ أَنْ اسْتَعْبَدَا ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ
الْمَمَالِكِ الْهِنْدِيَّةِ.

